

أبيرو الأبدان

تأليف

أحمد بنو بنك

مطبعة دار الكتب المصرية

١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م

جميع الحقوق محفوظة

تمهيد

- (١) زمن الرواية : عصر ملوك الطوائف .
- (٢) مكان الرواية : اشبيلية ، أغمات .
- (٣) أشخاص الرواية :
 - المعتمد بن عباد ، ملك اشبيلية .
 - الرميكية ، المالكة .
 - العبادية ، أم المعتمد .
 - بثينة ، بنته .
 - القاضي ابن أدهم ، قاضي القضاة .
 - الأمير حريز ، من أبطال الأندلس .
 - الأمير بولس ، شقيق ملك الأسبان .
 - أبو الحسن ، تاجر باشبيلية .
 - حسن ، ابنه .

- ابن حيوت ، من الأدباء .
- أبو القاسم ، من الأدباء .
- مقلاص ، مضحك الملك .
- لؤلؤ }
جواهر } من حجاب الملك .
- ابن شاليب ، رسول ملك الأسيان .
- الباذ بن الأشهب ، لص شهير .
- أمراء
- جنود
- الخ ...

رواية أميرة الأندلس

مقدمة

جرت حوادثُ هذه القصة في زمنٍ كان قطعة من ليل الملمات . أخذت الأندلس في جنحها الحالك ثم تركته نظماً منجلاً وركناً مضمجلاً ، وشمسا من دول الإسلام سقطت فألح عليها السقم فاحتضرت ، فكانت لها في الغرب هيئة وكانت عليها في الشرق صجة . وخلال تلك القطعة من ليل الملمات كان الأندلس تحت ملوك الطوائف ، وكان هؤلاء الملوك على شرف بيوتهم وتميز شخصياتهم ونبوغهم في كل علم وأدب أصحاب بديح وترف وأخدان صبوة وخلاعة ، لاحظ لهم من هممة الملك ولا نصيب

من مرشد الساطان . وإنك لتعجب من أنغماسهم في اللذات
ونسيانهم لذكر العواقب ، وهم أتعبُ خلقِ الله وأكثرُ الملوك
ركوباً للغرر ، واستهدافاً للخطر ، ومشياً على الحبال والحفر ، فأما
في داخل دويلاتهم فكيد وأتمار ، وفتنة نومها غرار ، وسيفها
في الغمد قليل انقزار ، حتى لا تكاد الشمس تطامح إلا على ملك
مخلوع ولا تغرب إلا على ملكٍ مقتول ، وأما في الخارج فكنت
ترى هؤلاء الملوك بين نارين تتواعدان ، وبين سبيلين يتهدران :
فملك الأسبان الفونس يتجنى ويعتدى ، ويضرب الجزية ويفرض
الإتاوات ، ويبعث لأخذ الأموال جباةً أهل غلظة وقحة ، وصاحب
مراكش يوسف بن تاشفين هو وقواده ووزرائه مشغوفون
بالأندلس يمحرونه الرسل والرسائل إلى قضائه وفقهائه ، مهيين
بذلك لفتح بنوا عليه الرجاء وعلموا به الآمال ، وكان ملوك الطوائف
يخافون جارهم هذا المسلح المتوثب سلطان المغرب ويرجون

فكان تملقهم له لا ينقطع ، وكانت الأموال تحمل إليه في صورة
المعونة ، وكانت الرشى تقدم لوزرائه ورؤساء دوائيه في صورة
الهدايا والأطاف ؛ وكل هذا المال إنما كان يجمع من المكوس
والمغارم ! فتخيّل كيف كان يؤس الرعيّة ، وتأمل كيف تذهب
معالم البلاد بين عبث الفرد وغفلة الجماعة ... ولقد كان على قرطبة
وهي حاضرة الملك أن تحمل شطر هذا البلاء فلم تلبث أن انحطت
عن ذلك المكان العالى الذى كانت فيه دار الخلافة ومطلع القصرين
الدمشق والرصافة فصارت كرسى إقليم وقاعدة دوريلة وعرش^(١)
ملك صغير يؤدى الجزية ولا يحس لها ذلة ولا هوانا .

(١) قصور الخلفاء الأول من بنى أمية في قرطبة .

أمر فضل الأول

المنظر الأول

« مقصورة من مقاصير البديع "قصر المعتمد بن عباد" في إشبيلية »
 « وإلى يمينها مصلى وفي مؤخرها ستار كبير يحجب . وقد وقف على »
 « بابها جوهر حاجب بن عباد ولؤلؤ ساقيه ومقلاص مضحكه »

جـوهر [إلى لؤلؤ] : كيف وجدت وجه الملك اليوم يا لؤلؤ ؟

لؤلؤ : كسنته ، يفيض من البشاشة والبشر .

جـوهر : بل أنت واهم يا لؤلؤ ! إن وجه الملك تغير في هذه الأيام

وبدا عليه التغمض وأثرت فيه الهموم أثرها الظاهر المبين .

مقلاص : كان الله عون الملك ، إنه ليحمل من هموم الملك وأكدار

السياسة ما تنوء به الجبال ، لعن الله السياسة وقبح الولاية ،

ولا جعل لي من أشغالها نصيبا .

جواهر [يضرب بيده على حذبة مقلاص] : وأى نصيب كنت تؤمل من
 أمور الدولة يا مقلاص حتى سألت الله أن يحرمك منه ؟
 مقلاص [ملتفتا] : دعني من هذيانك يا جواهر وانظر : هذه الأميرة
 أقبلت كأنها البدر في الليلة الظلماء أو كأنها الظبي يتخطف
 على الحصباء .

[تدخل الأميرة بثينة]

بثينة : يا بشرى ما هذا الحظ العظيم ، أصدقائي الثلاثة ههنا ،
 يجمعهم باب الملك : جواهر حاجب الملك ، ولؤاؤ ساق
 الملك ، ومقلاص .

مقلاص [مقاطعا] : مقلاص المهرج الساقط والمضحك الوضيع .

الأميرة [بثينة] : لا تقل هذا يا مقلاص ! ولكن قل نديم الملك ،
 وصديق ابنته بثينة .

مقلاص : أنا مقلاص المهرج صديقك أنت يا أميرة إشبيلية ، بل
 يا ملكة الأندلس ، بل يا شريكة الشمس في عرش
 الوجود ؟ !

الأميرة : أعرفت الآن مكانك ؟

مقلاص : عرفتته يا سيدتي وإني به لمزهو^ت ونفور .

الأميرة : إذا فاعلم أيضا أن هذا الحاجب جوهر قد يأذن على

الملك لرجال يكره لقاءهم ويغمه رؤيتهم وسماعهم .

مقلاص : أمّا أنا يا سيدتي فما وقفت على باب الملك مرة إلا حجبت

عنه الفكر والغم .

الأميرة : وهذا الساقى يا مقلاص .

مقلاص : هذا الساقى يا مولاتي يقبض كل يوم من دماغ الملك

شعاعا ، ولولا أن دماغه الشريف كالشمس التي لا تنفد

أشعتها لكان اليوم جمجمة^{عه و} لا عقل فيها كأكثر هذه

الرؤوس التي نراها في الطرقات .

الأميرة : وأما أنت يا مقلاص فتسقي الملك كل ساعة من رحيق

منزحك ودعابتك ما يملؤه غبطة وعافية وسرورا .

جواهر [مقاطعا — متدخلا] : لقد استأثرت يا نديم الملكِ ويا صديقِ
الأميرة .

مقلاص [مغضبا] : بالرغم من أنفك !

جواهر : لقد استأثرت يا مقلاصُ بحديثِ الأميرة ففتح ساعةً
واترك لنا فضلة من الشهد .

جواهر [للأميرة] : مولاتي ، سيدتي ، بثينة أية وحشية خلفت
في القصر يا مولاتي .

الأميرة : أو أبداً تبالغ ؟

جواهر : كلا يا مولاتي ! هي كلمة طافت بالقصر منذ افتقدناك
هذا الدهر الطويل .

الأميرة : أتعدُّ الثلاثةَ الأيامَ دهرًا يا جواهر ؟ ألم أقل لك إنك
تبالغ كثيرا ، لم لم تسألني يا جواهر أين كنت ؟

جواهر : أعلم أنك كنت في قرطبة يا مولاتي .

الأميرة [وتبتسم ابتسامة سخر] : أجل كنت في ملكنا الحديد يا جواهر .

جواهر : وكيف وجدته ؟

الأميرة : العنوان قبة ، والكتاب حبة .

جواهر : أرجو ألا يكون غرامُ الأميرة بأشبهيلية وطنها الغالي ومهدىها العزيز قد أنساها ذكر الفضل لقرطبة دار الملك الأولى ومهد الفتح وال عمران و

الأميرة : أجل . وسماء الرعد والعواصف ووكر الفتن والقلاقل ...
آه من قرطبة وبخاءاتها يا جواهر ، وويلي على أخي الظافر من هذه الولاية الحمراء التي لم يقلدها أميراً الا قتل أو عزل ...
عرش يضطرب تحت كل جالس ، وتاج لا يستقر على رأس كل لابس .

مقلاص : مولاتي !

الأميرة : مقلاص . أشبهيلية وأبي وأنت كانت ذكراكم ملء خاطري في قرطبة ، هل من دُعاة جديدة يا مقلاص تُسبني ماقيت من الغم والكدر على تلك العاصمة الثانية لملكنا السعيد .

مقلاص : لا تقولى هذا يا مولاتى فيغضب القرطبيون ؛ إنهم
لا يقدمون على مدينتهم حاضرة من حواضر الدنيا ولو كانت
دمشق أو بغداد فكيف يرضون أن تكون الثانية لأشبيلية
وذا مدينتنا في زعمهم إلا بلد الخلاعة والمجون .

الأميرة [ضاحكة] : وأين قرطبة منا الآن ، وأين القرطبيون يا مقلاص
و بيننا وبينهم سفر شاق طويل ؟ ترى من علمك كل هذا
الحرص ومن أين لك كل هذا الدهاء !

مقلاص : هي الأيام يا أميرتى . هي الأيام . وهذا السيف ماذا ...
كنت تصنعين به يا مولاتى ؟

الأميرة : كنت أتتى به عوادي الفجاءات .

مقلاص : وهذا اللثام ؟

الأميرة : كنت أذود به عنى العيون والظنون فى بلد ضيق الصدر
مبلد العقل ؛ شتان بينه وبين أشبيلية ذات العقل الواسع
والصدر الرحيب .

الأميرة [الجوهر] : لقد نسيْتُ يا جوهر ذكرَ واجبٍ كانَ عليّ أنْ أقدمه قبلَ كلِّ شيءٍ .

جـوهر : وما ذاك يا سيدتي ؟

الأميرة : السؤالُ عن الملكِ .

جـوهر : هو يا مولاتي بنخير . أبدأ يسألُ عنكِ .

الأميرة : وأين هو الآن ؟

جـوهر : هو في الصلاةِ يا سيدتي .

الأميرة [تطرق في تأثر ثم تقول] : يا ويحَ أبي لقد نظرت إليه وهو في قصرِ

السودانِ الضيقِ الصغيرِ بقَرْطبةَ فوجدتهُ كشيءٍ متأملاً كأنَّ

تلك السقوفَ المنخفضةَ لم تكن تليقُ برأسه العالِي وكان

تلك الحجراتِ الضيقةَ لم تُصنعْ لعينه الساميةِ الطاهرةِ .

وكأنما كان يرى الزهراءِ أولى بأن تُقلَّه . وأجدرَ بأن

تُظله . وهناك دنوتُ حتى صرْتُ خائفه بحيثُ أسمعُه

ولا يراني . فسمعتُه يقول وكان وحده في الحجرةِ مطلاً من

نافذة يلقي نظره على قرطبة .

جوهر [باهتمام] : وماذا كان يقول يا مولاتي ؟

الأميرة : كانت يقول : قرطبة ... ملك جديد أضيف إلى ملك

أشبيلية ، ما أصغر المضاف والمضاف إليه . أنظر ابن عباد

إلى العرش كيف صغر ، وإلى الصوبحان كيف قصر ،

وإلى الملك كيف اختصر ، وتأمل مكان الحكم في قرطبة كيف

سُدَّ اليوم بالمعتمد ، ومجاسس الناصر كيف شغل بابن عباد .

جوهر : نحن بانتظار القاضي بن أدهم يا مولاتي .

مقلاص [متداخلاً] : لعله هذه الكرنبة التي تتدحرج من بعيد منحدرةً إلينا .

الأميرة [مستضحكة بلوهر] : استقبل أنت يا جوهر القاضي وأدخله

على أبي فان قضاة الأندلس لا يستأذن لهم على ملوكه .

الأميرة [ثم لمقلاص] : وأنت يا مقلاص . أعرفت أنى وجدته .

مقلاص : وما ذاك يا مولاتي ومن هو ؟

الأميرة : أنسيت يا مقلاص حين تقول لأبي يسمع مني إن الزوج

الكفاء لبثينة لم يُخلق بعد لا في الأندلس ولا في غيره .

- مقلاص : لا لم أنس يا مولاتي . قلتُ هذا ولا أزال أعيدُهُ .
- الأميرة : إذا فاعلم أن الزوج الذي يصاح لي قد خُلق .
- مقلاص : ومن ذلك ؟ ما اسمه وأين هو الآن ؟
- الأميرة : كل هذا تعلمه بعد حين يا مقلاص . تعال معي الآن ،
اتبعني ودع جواهر ولؤلؤ يستقبلان القاضي الجليل ...
- الأميرة [إلى جواهر] : في حفظ الله يا جواهر .
- الأميرة [إلى لؤلؤ] : في حفظه يا لؤلؤ .
- جواهر ولؤلؤا معا : في ذمة الله وكلاءته يا مولاتي .
- الأميرة : لا تنسيا أن تذكراني عند الملك وأني رهنُ إشارته .
- [تخرج الأميرة مع مقلاص]
- جواهر : أشكر الله أن أخرجني القاضى .
- لؤلؤ : كذلك كنتُ أحدث نفسي وأخشى على مولاتي في زيها
هذا من عين الشيخ ولسانه .
- [يظهـر الملك]

المالك : هل جاء القاضي ابن أدهم يا جوهر ؟

جوهري : أجل يا مولاي رأيتُه في ساحة القصر .

لسؤلؤ : وقد عادت الأميرة من قرطبة يا مولاي .

المالك : أوعادت الآن ؟

لسؤلؤ : أجل يا مولاي .

المالك : أهي بخير ؟

لسؤلؤ : بأتم عافية يا مولاي .

المالك : إذا انتهى ابن أدهم من زيارته فأت بها إلى .

لسؤلؤ : أمرك يا مولاي .

[يخرج لسؤلؤ] .

المالك : وعليك يا جوهر أن تستقبل ابن أدهم وتأتيني في أوفر

بشاشة وتعظيم .

[يخرج جوهر ثم يرجع يتقدم القاضي]

[ابن أدهم وينادي من باب الحجر]

جوهر [مناديا من الباب] : القاضي ابن أدهم .

القاضي : السلام على الملك ورحمة الله وبركاته .

الملك : وعاليكم السلام أيها القاضي ومقدم الخير ، فقد علمت

أنك كنت نزيل المغرب في الأيام الأخيرة وكنت به ضيفا

على أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .

القاضي : هو ذاك يا مولاي .

الملك : فكيف الحوادث والأحوال هناك ؟

القاضي : عندي من ذلك الشيء الكثير وسأذكره في مجلس تالي

يأمر به الملك ولا أذكر الآن إلا رسالة حملتها الأمير

سيري بن أبي بكر .

الملك : وما هي أيها القاضي ؟

القاضي : أو يعرف الملك الأمير سيري ؟

الملك : كيف لا أعرفه ! هو كافل الدولة المغربية وكبير وزراء

السلطان وقائد جيوشه الأكبر . وما يتغنى مني الأمير

أيها القاضي ؟

القاضي : إنه يخطب إليك الأميرة بثينة .

الملك : ألتخصمه يخطبها أم لواحد من أولاده فهم فيما أعلم أكثر

وأصغرهم فيما أذكر يوافق ميلاده ميلاد بثينة .

القاضي : بل يخطبها لنفسه أيها الملك .

الملك : إن هذا عجيبٌ أيها القاضي وما كان جوابك ؟

القاضي : قلتُ له إن الملك ابن عباد يذهب بيئته بثينة كل مذهبٍ

ولا أظن قلبه يطاوعه على تزويجها في الغربية وإخراجها

إلى بلاد بعيدة .

الملك : أحسنت أيها القاضي ، فما هذا زواج ... إن هذا إلا قبرٌ

أخطه بيدي لبثينة . على أنني محضر إليك بثينة لتحدثها

وتسمع منها .

الملك [إلى جوهر] : جوهر ، جئنا بالأميرة يا جوهر .

[يخفي جوهر لحظة ثم يعود بالأميرة]

الأميرة : أبي !

الملك : بنيتي !

الأميرة : أطلبيني يا أبي ؟

الملك : تعالى بثينة حبي عمك القاضي ابن أدهم .

الأميرة : السلام عليك يا مولانا القاضي ورحمة الله وبركاته .

القاضي : وعليك السلام يا بنت أكرم الملوك . تعالى خذي مجلسك

بين أبيك وعمك .

الملك : مع من عدت من قرطبة ؟

الأميرة : مع لثامى وجوادى .

الملك : وكيف وجدت قرطبة ؟

الأميرة : وجدت طرقاتها تموج بالفقهاء يعرفهم الناظر بزيتهم فذكرت

عندئذ شهرة هذا البلد بالفتنة والتشغيب وجرأة أهله على

أمراءهم وحكامهم وأشفقت منه على أنحى الظافر ، وإن

كنت واثقةً بحزمه وعزمه .

القاضي : ومن أنباك أيتها الأميرة أن الفتنة والشغب يجيئان من

ناحية الفقهاء ؟

الأميرة : لم يبق سراً يا سيدي القاضي أن الفقهاء يُعَلِّقون سعادة الأندلس وخلصه بالقائه في أحضان جيرانه سلاطين المغرب .

القاضي : وأنت يا بنت ملوك المسلمين ، أما تجدين ما يطلبه الفقهاء في قرطبة أجدى على الأندلس من بقائه على الحال التي هو فيها مشرفاً على التلف والضياع ؟

الأميرة : لا يا سيدي القاضي ليس في الحق أن يغتصب جماعة من المسلمين أوطان جماعة غيرهم من المسلمين فإن الوطن هو كالبيت في قداسته وكأضيعة في حرمتها .

الملك [مت دخلا في الحديث] : لقد بعثت يا بئينة في طلبك لغير هذا الشأن وفي أمر ذي بال وإني أترك للقاضي التحدث معك فيه .

الأميرة [ملتفتة الى القاضي] :

تكلم يا عم فكلى إصغاء ؟

القاضي : لقد خطبتك الى أبيك رجل من عظماء الإسلام في هذا

الوقت هو الأمير سيرى بن أبي بكر وزير الدولة المغربية .

الأميرة : أفارغ هو أم مشغول يا سيدي القاضي ؟

القاضي [في حيرة] : بل له من الأزواج ثلاث وستكونين الرابعة وستكونين
المدللة المهتمة من بين أزواجه .

الأميرة [في غضب] : إنك يا سيدي القاضي تدعوني الى خُطبة لا أنا
مضطرة فأحمل النفس الكارهة على قبولها ولا الأمير ابن
أبي بكر معطل البيت من الربة الصالحة فيتشبت بها ويصر
عليها ، بل تلك خُطبة لم أجد أبوي عليها ولم آلف رؤية
مثليها في حياة أسرتي : فهذا أبي جعلني الله فداءه لم يتخذ
على أمي ضرة ولم يكسر قلبها بالشريكة في قلبه فجاءت بنا
أولاد أعيان ، نجتمع في جناح الأبوّة ولا نفرق في عاطفة
الأمومة ، ولو شاء أبي لكان له كنظرائه الملوك والأمراء
نساء كثير ولكان له منهن بنو العلات تحسبهم إخوة وهم
أنصاف إخوة من كل دجاجة بيضة ومن كل شاة حمل .

القاضي [متلفاً] : شهيد الله لقد أحسنت يا ابنتي . ولكن مصالحة الملك
أنسيتهما ونصرة الوالد أغفلت عنها . وسلامة الأندلس
أأهملت شأنها ؟

الأميرة : لا يا سيدي القاضي كل ذلك في المحل الأول من نفسي
واهتامي ولكننا مختلفان في النظر فأنت ترى أن الأندلس
لا ينهض من كبوته إلا إذا مدّ السلطان اليه يده وأنا
أتحيلها يد الذئب يمدّها إلى الحملي ، وأنت يا سيدي
القاضي قد أخذك اليأس في أمر الأندلس وأنا كلي رجاء
ولا أستبعد أن تنهياً لأبي ، وهو كهف الأندلس وملاذه ،
الفرصة لجمع الكلمة وضرب الأفرنج ضربة تريح العرب
منهم السنين الطوال وأنت تعلم أن تاريخ الأندلس مفعم
بالمجاعات السعيدة من هذا الطراز .

القاضي : يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولقد رددتُ عنك
أيتها الأميرة وعن أبيك الملك وأحسب أني أحسنت الرد .

الملك : كل الإحسان أيها القاضي .

القاضي : الآن لم يبق إلا أن أنصرف .

الملك : مشيئاً بحفظ الله ورعايته .

[ينصرف القاضي ويشيعه الملك]

الملك [للقاضي] : كيف تجدُ بثينة يا ابن أدهم ؟

القاضي : بورك لك فيها وبورك للأندلس في عقيلته ! إنى أجدها

روح الوالد وأرى عليها طبة الزمن وحضارة الجيل .

[يعود الملك ومعه مقلاص بعد أن يودع القاضي]

الملك : أعلمت يا مقلاص ؟ أسمعت أن سيرى ابن أبي بكر يخطبُ

إلى بثينة ؟

مقلاص [ملتفتاً إلى بثينة بصوت خافت] : أهذا الذي وجدته ياسيدي ؟

إني لا أهنيك بتيس المغرب .

الأميرة : لا يا مقلاص إن الذي وجدته هو غزال الأندلس لا تيس

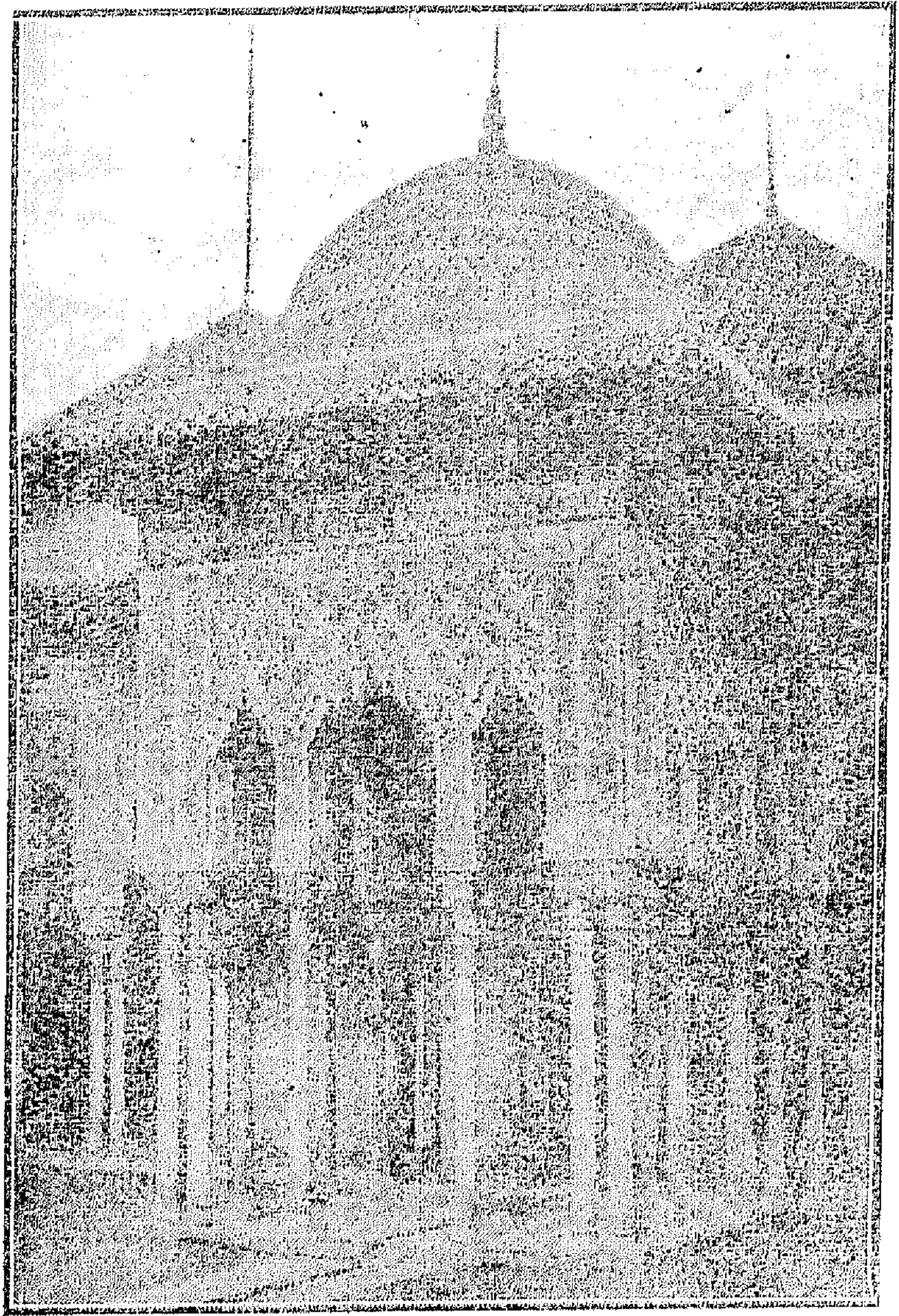
المغرب .

الملك : خبريني يا بثينة ماذا وجدت في قرطبة .
 الأميرة : حال من القزارة تنتزه عن مثله أشبيلية .
 الملك : هذا من توالى الفتنة والاضطراب على الناس حتى سُفغوا
 عن تنظيف مدينتهم التي كانت المثل المحتذى بين المدن
 نظافة ونظاما ... ثم ماذا ؟

الأميرة : راعيتي قصورها المهجورة الموحشة كأنها الأطلال .
 الملك : هذا من انقراض الوارثين أو ضيق نعمتهم عن سكنى
 الدور الواسعة وصغر أقدارهم عن نزول المنازل الرفيعة .
 [يظهر على بثينة التأثر والاعتمام] .

الملك : ماذا غمك يا بثينة ؟
 الأميرة : تذكرت يا أبا قصورنا بفخرعت ، قلت : الزاهى ترى
 ما نصيبه ، والتاج ما ذا غدا يصيبه ، والبديع ما يكون
 مصيره ، والمؤنس هل توحش مقاصيره ؟

الملك : بنيتي خلى عنك هذه الهواجس ، ولا تتحلى على الشباب



قصر من قصور الأندلس

العُيُوس والهُمُّ فانه لم يخلق لها . إصرفي الشبابَ الى الضحكِ
والغِبْطَةِ فانهما طبيعته وديدنه . ألا نعود لحديث قرطبة .
خبريني كيف وجدت أسواقها ؟

الأميره : دون أسواقٍ أشبيلية حركة ونشاطا إلا سوق الكتب
فلا أحسب بغداد أقامت مثلها ، دخلتها يا أبا فليثتُ فيها
ساعة أتأمل ما يقع في جوانبها وأشهد النداء على نفائس
الكتب وذخائر المخطوطات ، وهي في أيدي الناس يقلبونها
في اعتناء وإشفاق كأنها كرائم الحجارة في أسواق الجواهر .

الملك : وهل كنت تهتمين بكتاب هناك ؟

الأميره : أجل يا أبا . نودى على رسالة المنجم الضبي ، التي سماها :
هل القمر مسكون ، وكنت سمعتُ بها وكنت أريد
إحرازها فسرنى الظفرُ بها ، وكان بالقرب مني فتى حسنُ
الهيئة ظريفُ الثياب هو لا شك من بني البيوتات ، وكان
ينازعني الرغبة في الرسالة فلم يزل يزيد فيها وأنا أخرج

فأزيد حتى بأغها الى خميس مائة دينار فقبضتُ يدي فرجع
اليه المنادى فأخذَ المالَ وناولَه الرسالة .

المـلـك : لا أظنَّ حرصَ الشابِّ على الرسالة إلا للباهاة ، ولكي يقال
عنده خزانة كتب حوت كل ثمينٍ ونادرٍ حتى رسالة المنجم
الضبيِّ فإن الشهرة في قرطبة من قديم الزمان أن يتنافس
الناس في اتخاذ الخزان للكتب حتى الذين لا علم لهم
بما فيها .

الأميرة : ظلمت يا أبي غريمي الشاب فقد كنتُ ألاحظُ عليه الحِرص
على الرسالة والسعي لإحرازها حتى ما بقي في نفسي شك
أن الفتي من أهل المعرفة والإطلاع .

المـلـك : وكيف هو يا بثينة : ما شكله ؟ ما صفته ؟

الأميرة : شاب يناهز الثلاثين ، جميل وقور يشبهك يا أبي أو كأنه
أنحى الظافر وما كان أعظم أدبه ومروءته فانه حين غلبني
على الرسالة بادر فقال : أيها الفتي المثلث ! إن كان اعتناؤك

بهذه الرسالة شديدا كما رأيتُ فعرفتني بموضع إقامتك وأنا
أستصنع منها نسخة وأبعثُ بها اليك . فشكرتُ واعتذرتُ
بكثرة أسفاري في الأندلس فانطلق شديد الفرح بما نال
وكان جواده بانتظاره فاعتلاه فوالله يا أبي ما رأيتُ قط
بعذك و بعد أخي الظافر أرشق وثوبا على جوادٍ ولا أحسن
قياماً في صهوةٍ من غريمي الشاب .

الملك [مبتسما وهو يضع يده على كتفها] : أخشى يا بثينة أن يكون غريمك

الشاب أعرف بتصيد القلوب منه باعتلاء الجياد .

مقلاص : الآن عرفته هو فتى السوق ، هو فتى الرسالة .

[يدخل لؤلؤو يقول] :

الجماعة يتواردون على مجلس الشراب أيها الملك فانظر

ماذا تأمر ؟

بثينة : وأنا أيضا ذاهبة لبعض شأني إن أذنت .

الملك : في كلاءة الله يا بثينة .

[تخرج بثينة] .

المنظر الثاني

« ترفع الستار الخلفية عن مجلس شراب الى جانبه ستر مسدل »

« وفي وسطه مائدة حولها الملك وجماعة من حاشيته وتطل »

« هذه المنظرة على الوادى الكبير حيث للملك زورق » .

الملك : ما عندك من الشراب لأصحابنا يا لؤلؤ ؟

لؤلؤ : نحمور مالقة وزبيبي اشبيلية .

الملك : وماذا هيأت لهم من نُقْلٍ وطعام ؟

لؤلؤ : الجوز واللوز من وادى الطلح .

الملك [يزفع عنفيرته ويعنى] : الجوز اللوز يارب الفوز .

أحد الحاضرين [الى جاره] : هذا لحنُ الملك الذى يحبه ويهتف به حتى

في الحمام .

مقلاص : ولحنى أيها الملك أتسمعه ؟

الملك : قل . هاتِ يا مقلاص .

(١)
مقلاص [يعنى] : الجوز اللوز بوادى الحوز .

المسلك : مرحى ! مرحى ! .

الحاضرون جميعا : مرحى ! مرحى ! .

الملك [لمقلاص] : تعال قف خلفى يا مقلاص وقم عند رأسى .

مقلاص : ها أنا قائم عند رأسك الشريف هل أفليه ؟

المسلك : تأدب يا وقاح القمل لا يوجد في رؤوس الملوك .

مقلاص : ما أدري يا مولاي ولكنى أعلم أن القمل يوجد في لبدة

الأسد وأنت أسد الأندلس الذى يعنوله الملوك .

المسلك : لله ما أمر لسانك وما أحلاه . فهو كمشريط الجراح الماهر

جمع مرارة القطع وحلاوة الشفاء .

الملك [الى لؤلؤ] : ثم ماذا يا لؤلؤ ؟

لؤلؤ : كل مالذ وطاب من السمك . بعضه مجلوب من بحر

الزقاق . وبعض من صيد الوادى الكبير .

(١) منزله مشهور بالأندلس .

الملك [يتغنى] : الجوزُ اللوزُ ياربُّ الفوز .

الملك [الى وزيره ابن سعيد] : ماذا يقولون في المدينةِ يا بن سعيد ؟

الوزير : لا حديثَ اليومَ لأهل أشبيلية الا تلك النكبة التي حلتْ
بأبي الحسنِ التاجر .

الملك : واهًا لأبي الحسن . وويح الأندلس ما أعظم مصيبتَهُ
في تاجرِهِ العامِلِ الموفِّقِ الأمين .

الملك [الى ابن سعيد] : وكيف وقعتِ الكارثةُ يا بن سعيد ؟

الوزير : كانت لأبي الحسنِ التاجرِ في بلجج البحارِ ثلاثُ بوارج
وهي ، الزهرة ، والثريا : والجزءاء ، خرجتِ الزهرةُ الى
الاسكندرية تحمل اليها مقداراً عظيماً من الزيت الأشبيلي
فأخذها عاصفٌ فغرقَتْ في الطريق . وأقلعتِ الثريا
بعد ذلك بايام مشحونةً بالمتاجرِ المتنوعة الى ثغور الأندلس
فصادفها أسطولٌ للفرنجة كان يتجول على الشواطئ فأخذها
مغنياً بارداً ، وكانتِ الجزءاءُ قد سبقَتْ أختيها الى عرض

البحرِ تقصِد سواحلَ المغربِ مَحْمَلَةً الشَّيْءَ الكَثِيرَ من
مصنوعاتِ الأندلسِ ومتاجرِهِ فشبَّت فيها النارُ فأعيا
إطفائها فسقطتُ شعلةٌ في الماءِ .

الملك : ويح لأبي الحسن ويح ! !

الوزير : إن أبا الحسن أيها الملك شيخ كبير قد فرغ من الدنيا
وفرغيت الدنيا منه ، فصيبته أقصر عمراً وأهون وقعاً من
مصيبة ابنه الواحد وولده النابه الشاب حسون .

الملك : قد ذكر لي اسمه وسمعتُ الثناء عليه من كثيرٍ من الناس .
الوزير : وإنه لكما نعتوه لك أيها الملك وفوق ما نعتوه : شابٌ جميلٌ
وقورٌ جرىءٌ ، وافرٌ القسبط من العليم والأدب ، تعلم لغة
الإسبان حتى أجادها حديثاً وكتابةً يجرى بها لسانه كما يجرى
بها قلمه .

الملك : إن شاباً هذا شأنه وهذه همته في الحياة لا يترك نبوغه
سدّي ولا يوكل إلى اليأس القاتل ، بل يجمل بنا أن نأخذ

بيده فنهون عليه عشرة أبيه البرئ .

الجماعة [يتهامسون] : ما هذا السِتر ؟

آخر [همسا] : ترى ماذا يُخفي هذا السِتر ؟

ثالث [همسا] : ماذا خبا لنا الملك وراءه ؟

الملك : فيم تتهامسون ؟ لعلمكم تذكرون السِتر . إشرَبوا الآن ما بدا

لكم واطربوا ؛ وأما السِتر فستعلمون نبأه بعد حين . لقد

وزعتُ عليكم من أيام وفد النصارى من نبلاء الإسبان

فماذا صنعتم بهم وكيف ، كانت أنصبتكم ؟

الملك [ملتفتا الى وزيره داني] .

الوزير داني : كانت حصتي يامولاي أطيب الحصص ، فضيفني شاب

نبيل طروب لطيف الأذن ، مولع بالقيثارة لا يضعها من

يده وله عليها ضرب يأخذ بالألباب .

الملك [متبسما] : يسأل آخر من الجلساء . وأنت يا بن الصائغ كيف

ضيفك ؟

ابن الصائغ : أنا أقل الإخوانِ حظاً أيها الملك ، فضيئني رجلٌ كهلٌ
قَسِيْسٌ يقطع الليلَ بالصلاةِ وتلاوةِ الإنجيلِ .

الملك : بل لعلك أعظمُ الجماعةِ حظاً ولا تدرى .

ثالث من الجلوساء [مخاطباً الملك] : أما أنا أيها الملك فقد ابتليتُ برجلٍ
شيخٍ شريبٍ نحرٍ لا يُرويه في اليومِ دينٌ ولا دنان . فإذا
كان قبل كل طعامٍ قدمتُ له زبيبي أشبيلية فأقبل يعبه
عباً كما يقع الظمان على الماء الزلال ؛ وقد شرب من نحرٍ
مالقة في ثلاثِ ليالٍ أقامها عندي ما يكفيني أنا شهراً
وأنا الذي يعرف الملك ولعي بالنحر الملقى .

الملك : وأنت يا لؤلؤ كيف ضيئك وما حاله ؟

لؤلؤ : إنه شاب يا مولاي خفيفُ الظل والروح . مواعٍ بالرقص
وأنا أتلقى عليه كل ليلةٍ دروساً في الرقص الأسباني حتى
كدتُ أحسنه .

الملك : وأنت يا مقلاص . كيف ضيئك وماذا يصنع معك ؟

مقلاص : ضيفي يا مولاي رجل كهل بادن ضخم الجثة كالخنزير
المتدلى البطن من تراكب الشحم واللحم اذا جاء في البيت
وراح ارتجت الجدران واهتز ما على الرفوف من آنية .
واذا نام نخرج الغطيط والنخير من حلقه ومن أنفه ومن كل
موضع فيه ولو نام في جبانة لا يقظ غطيطه الأموات .

المالك : وكيف طعامه يا مقلاص ؟ وما أحب الألوان إليه ؟ .

مقلاص : هو يا مولاي مجنون المععدة بالإوز . له كل صباح على
الريق إوزة وغداؤه إوزة وعشاؤه ...

الحضور جميعا : إوزة .

المالك [ملتفتا لوزيره داني] : وما عندك أنت ياداني مما يقولون في المدينة ؟

داني : يتهامسون في المدينة بأن الفتنة قد تحركت شياطينها في قرطبة

وأن القادر صاحب طليطلة يسعى لأخذها من ولدك

الأمير الظافر، وأنه يستعين في دسه وكيدته وتدييره بالبطل

حريز وصاحبه ابن طولون .

الملك : الولاياتُ يا داني نحلها النحل فيها العسل وفيها الأسل
وأنا واثقٌ بحزم الظافر وعزمه والله يفعل بعد ذلك ما يشاء
إن ضيوفكم النبلاء أيها الأصحاب سيكونون هنا بعد ساعة .

الملك [الى جوهر] : وأنت يا جوهر أنظر . أين الجنديان ؟

جوهري : بالبواب يا مولاي .

الملك : أدخلهما .

الملك : يدخل الجنديان .

الملك [الى الجنديين] : أين الكلب ؟ ! أجمتما به ؟

الجنديان : هو بالبواب يا مولاي يرسف في قيوده .

الملك : أدخلاه .

[يدخل ابن شاليب اليهودي يجر قيوده]

ابن شاليب : التحية والإجلال للملك .

الملك : تحية لا نتقبلها من رجلٍ شتمنا بالأمس بمسمع من رجالنا

وأعواننا .

ابن شاليب : معاذ الله أيها الملك : ما شتمت ولا تهجمت ولا نسيت
أنى نزيل هذه المملكة ، يجبُ على لصاحبها التوقيرُ
والإكبار .

الملك : بل أنت تكذبُ يا ابن شاليب .

ابن شاليب : على رسلك أيها الملك ، أنسيت أن ورائى ملكاً عظيماً
يسأل عن أمرى وأنا سفيره عندك ورسوله اليك ، وقد
يغضبُ لى إن أنت نلتنى بسوء .

الملك : فان كان السفير وقاحاً قليل الأدب ؟

ابن شاليب : هذا كثير أيها الملك فاجعل للإهانةِ حداً ولا تنس لى مكانى .

الملك : ستعلم مكانك بعد قليل .

[الى ابن وهب]

أعد يا ابن وهب على هذا الكلب ما لبت به حين
عرضت عليه مال الجزية .

ابن وهب : لقد همَّ يا مولاي برد المالِ معتلاً بسوءِ العيارِ ونقصانِ

الإتاوة عن السنة الماضية وقال : بلغ سيدك أنه لا يحول
الحول حتى آتى فأخذ عينيه .

ابن شاليب : هذا كذب واختلاق .

المسلك : بل أنت الكذاب . فما أنا بالملك الذي يكذب عليه
وزرائه وأعوانه . وما شرف الأندلس وجلاله إلا عدل
قضاياه وقلة شاهد الزور فيه .

ابن شاليب [يمتدح خديته على البساط ويقول] : ألا تعفو أيها الملك الكريم .
فهم يقولون إن العفو شيمتكم معشر العرب .

المسلك : إلا ما مس الشرف والكرامة .

ابن شاليب : أتقتلني أيها الملك من أجل كلمة سبق بها لساني وأعماني
الغضب فلم أزنها ولم أقدر عواقبها .

المسلك : عجبا يا وزير الفونس ... أنت تزن القناطير المقنطرة من
الذهب والفضة فلا يفلت من حسابك برادة مثقال . ثم
لا تحسن أن تزن كلمة تخرج من فيك ! ...

ابن شاليب: أعف عنى واستبقني أيها الملك وأنا أشتري منك حياتي
بوزن جسمي ذهباً .

المسك: لا والله ولا بثقله لآلى وواقيت وأنا أعلم أن وراءك ملكاً
عظيماً هو عبد المال . أما أنا يا ابن شاليب فعبد الله .

الملك [لجندين]: أيها الجنديان خذا هذا المجرم فامضيا أمرى فيه .

[الجنديان ينقضان على ابن شاليب

فيأخذانه الى ما وراء الستر المسدل]

الحاجب [يدخل]: نبلاء الاسبان بالباب يا مولاي .

المسك: يدخلون .

كبير النبلاء: التحياتُ للملك .

المسك: مرحباً بضيوفنا النبلاء . تفضّلوا وخذوا مجلسكم

وأطرحوا الكلفة .

كبير النبلاء: شكراً يا مولاي؛ هذه الحفاوة بالضيف لا تستغرب من

ملك العرب الكريم .

الملك : تعال اجلس بجانبى أيها النبيل .

[يجلس كبير الأسباب حيث أشار الملك

يطوف لؤلؤ على القادمين بالشراب وبالنقل]

لؤلؤ : ماذا تشتهي من الشراب ؟

كبير الأسباب : ما دمننا في أشبيلية يا فتى الملك فاني لا أقدم على زبيبا

الصافي المعطر شيئا .

أحد الحاشية [في أذن جاره] : انظر السكير يا أنحى كيف تجاهل حمر ماله

وكيف نسي أنه أنفد ذخيرتى منها في ثلاث ليالٍ أقامها

عندى .

[ضجة وشراب وأحاديث همس]

الملك [الى لؤلؤ] : دلنا يا لؤلؤ على ضيفك الرقاص .

لؤلؤ [يشير الى أحدهم] : هو هذا النبيل يا مولاي .

الملك [الى الأسباب] : إن فتاى لؤلؤ أيها النبيل مغتبط بما تعلم عليك

من أصول الرقص .

الأسباني : وأنا يا مولاي ما رأيتُ أسرعَ خاطراً ولا أرشقى حركاتٍ

ولا أحسن حفظاً لما يلقى عليه في فنون الرقص من
صاحبي لؤلؤ .

الملك : إن مطربى هذا ابن حزم يحسن الضرب على القيثارة .
وقد تعلم في صغره الكثير من ألحانكم ونبغات رقصكم .

الملك [الى لؤلؤ] : فأيرقص لؤلؤ على إيقاعه .

الملك [الى الاسباني] : وأنت ترسم له أيها النبيل النعمة التي تصلح
للقصة .

[لؤلؤ وصاحبه الاسباني يرقصان و يعزف لها ابن حزم... ويصفق

لها الملك والجماعة ثم يجلس الثلاثة بين الاستحسان والاعجاب]

الملك [في جد الى جليسه الاسباني] : أيها الضيف النبيل . أمر يشغل
بالي ويهتم به أصحابي وينتظرون حكى فيه . وقد رأيت
أن أنتهز فرصة الأئس بحضوركم لأسير على ضوء رأيك
في تصريفه .

النبيل الأسباني : ليس أحب الي أيها الملك ولا أزيد في شرفي من

مشورة خالصة نافعة ألقيا الى جلالتك .

المسك : إذن فاعلم أيها الضيف النبيل أن أحد جيراننا الملوك أوفد
إلى رسولنا في مهمة معلومة فنسى الرسول مكاني حتى
سبني بمشروع من رجالي وأوعد وتهدد . فما الذي يقضى
به عرفكم على رجل هذا فعله .

النبيل الأسباني : مثل هذا جزاؤه القتل يا مولاي .

ملك [إلى النبلاء] : أسمعتم يا معشر النبلاء .

النبلاء : سمعنا أيها الملك وقد أفتى كبيرنا وهو العدل والصواب .
المسك : إذن فانظروا .

الملك [ثم لأحد الجند] : أيها الجندى ارفع هذا الستر .

[يرفع الستر عن جثة ابن شاليب جثة هامدة معلقة على عود]

الجماعة صائحين : ابن شاليب ؟

المسك : هذا صاحبكم ابن شاليب قد رماني أنا ووزيري هذا ابن
وهيب يتروير العيار والغش في الميزان وقال لرجالي وأعواني :

بلغوا سيدكم أننى آتٍ فى العام القابل فأخذ عينيه من رأسه .
 أحد الجماعة مستنكرا : وما ذنبنا نحن أيها الملك حتى عاقبتنا بهذا المنظر؟
 الملك : لقد ترددتُ بين أن أقتله بأعينكم وبين أن أعرضه عليكم
 وهو كما ترون جثة بلا روح ولكنى وجدت فى الرأى
 الثانى تخفيفا على ضيوفى فعملتُ به .

[ثم ينهض الملك علامة الاذن فى الانصراف ويختلط بهم وهو يشيعهم]
 الملك : انقلوا أيها النبلاء إلى الملك القونس ما سمعتم ، ووصفوا له
 ما رأيتم ، وتحدثوا به فى طولِ بلادكم وعرضها ليعلم الناس
 هناك أن الأسد العربى لا يُسَمَّ فى عرينه وأنه لو غلب
 على غابته حتى لم يبق له منها إلا قاب شبرٍ من الأرض
 لما استطاعت قوى الإنس والجن أن تنفذ إلى كرامته
 من قاب هذا الشبر .

[ينسل النبلاء الأسباب من المنظر وهم يجرون سيقانهم جرا من الرعب]
 الملك [إلى حاشيته] : الآن يا نبلاء العرب تطوى هذا البساط ويبقى

هذان الجنديان حتى إذا خلت منا المنظرة رفعا السِتر عن
جثة ابن شاليب ليعلم أهل أشبيلية كيف يحل العقابُ
من يجترئ على شرف أميرهم الذي هو شرفهم الرفيع .

المنظر الثالث

« الملك "نشوان" ومعه مضحكة مقلاص يدنو من زورق »

« على الوادي الكبير فيثب فيه ويقول »

الملك : أنظر يا مقلاص إلى هذا الزورق ما أطفه ، صدق القول :

كل صغير لطيف .

مقلاص : إلا وظيفتي في قصيرك فانها لا لطيفة ولا شريفة ، وإن

هذا الزورق قد ينقلب فيأخذ شكل النعش ولن يكون

النعش لطيفا أبدا .

الملك : هبه انقلب يا مقلاص فصار نعشا ، أليس النعش مركب

كل حي وإن طالت سلامته ؟

مقلاص : أما أنا فيعطيني الملك .

الملك : لا يا مقلاص — لا أعفيك ولا أحسبك تدعني أسير

في بلحة النهر وحدي وأنا كما تراني نشوان .

مقلاص : وإن كان ولا بد أيها الملك فاني أقترح .

الملك : وما تقترح ؟

مقلاص : أن أكون أنا المجدّف وحدي .

الملك : ولماذا ؟

مقلاص : الأمر بين ! التيار مجنون ، والسكر مجنون ، وأنت سلطان وكل

سلطان مجنون ، وهذا الزورق خشبة لاعقل لها فهو أيضا

مجنون ، وإني أر بأبجياتي أيها الملك أن أجمع عليها مجانين أربعة .

الملك [مستضحكا] : لا يكون إلا ما اقترحت يا مقلاص تعال إركب

وجدّف وحدك واترك لي أنا الدفة .

مقلاص : أما هذا فنعم . وإني أرجو أن تكون دفة هذا المركب

الصغير أحسن مصيرا في يديك من دفة الملكة .

الملك [مستضحكا] : تعال ثب ؛ هات يدك .

[مقلاص ينزل الى الزورق و يأخذ المجدافين]

الملك : أنظر يا مقلاص ورائك إني أرى قارباً يندفع نحونا مسرعا

كأنه حوتٌ مطاردٌ مذعورٌ .

مقلاص : هو ذا قد دنا منا يا مولاي فأحسن مسك الدفة واجتنب
الصدمة وأنا أذوده عنا يجذاني هذا وأضربه ضربةً تقذف
به الى الشاطئ الآخر من النهر .

المسلك : إياك أن تفعل ، بل أسره فلا بد لنا أن نؤدب هذا الشاب
المغرور فاني أرى الملاح قتي كريم الهيئة فهو لا شك من
أبناء أعيان أشبيلية .

[يصطدم الزورقان و يظهر مقلاص ارتباكاً وحبينا فيقبض

الملك على الزورق المهاجم بيد قوية و يقول لمقلاص] :

المسلك : إقذف الآن به إن استطعت الى الشاطئ الآخر من النهر
[ثم يلتفت الى الشاب الملاح و يقول] : مكانك أيها الغلام الوقاح ،
ما هذه الجرأة على التيار وعلى شبابك هذا الغض النضير .
وما غرك بالملك حتى قربت عودك من عوده تريد أن
تأخذ عليه الطريق .

الملاح : مولاي . إن الرعية يهفون ، وإن الملوك يعفون ، وزورقي

إنما اندفع بقوة التيار القاهر فوافق مرور مركبك المحروس
فكان ما كان مما أعتذر الى الملك منه .

الملك [بصوت منخفض] : ويح أذنى ما ذا تسمع؟ هذا الصوتُ أُعْرِفُهُ!
[ثم يلتفت الى الملاح قائلاً] : قد عرَّفناك أيها الفتى من نحن
فعرِّفنا بنفسك .

[يرفع الملاح قناعه] .

الملك [صائحاً] . بثينة ؟

الأميرة [الملاح] : أجل أيها الملك ابنتك وأمتك بثينة .

الملك : عجباً أنتِ هنا بين العَبَبِ والتيار وعلى هذا العود الذى
يشفق أبوك من ركوبه وأبوك من تعلمين أشجع العرب
قلبا .

الأميرة : ولم لا تكونُ ابنة الملكِ شجاعةَ القلبِ مثله إن الأسد لا يلد
إلا اللبابة .

الملك [يهدأ غضبه] : ومن أين مجيئك الساعة يا بثينة ؟

الأميرة : من الموضع الذى أحبه كما أحب الحجر التى ولدت فيها ،
ومن ناحية السرحة التى أحسن لها سكنينى للقاصير التى ضمتنى
طفلة ممهدة ، ومن بقعة مباركة وقفت السعادة بك فى ظلها
على أمى الرميكية فرأيتها فأحببتها أول وهلة . ولم تكن
إلا غسالة مغمورة فتزوجتها فرفعتها أعلى ذرى الشرف
ومن هذا الزواج الموفق السعيد ولدت أنا لأب قصر
الآباء عن يره وملك جل عن النظراء والأمثال . أليس ذلك
المكان الذى هو مهد جبكا الأول من حقه أن يحن إليه
أحيانا بل من حقه أن يحج آنا فآنا .

الملك [مناثرا] : بنفسى وروحى أنت يا بثينة . لقد عظمت المهدة
وقضيت الحق والآن ألا ترجعين الى القصر بسلام فلا
أحسب القصر إلا قائما لغيبتك على ساقى حتى لكأنى بأمك
تسأل عن أمرك وبيدتك أشغل وأشد قلقا .

الأميرة : لقد كنت يا مولاي فى طريقى الى القصر لولا هذا الاتفاق

السعيد الذي صدم عودي بعودك والآن إذ أهرت فاني
أنطلق في سبيلي وأستودعك الله يا مولاي .

المسلك : إذهبي يا بنتي في كلاءة الله وإياك والمجازفة فيما تفعلين فان
الحياة أعزّ وأنفس من أن تُعرض للتهلكة وأنهلك عن
الخروج بعد اليوم إلا مصحوبةً بلؤلؤ أو جوهر فانهما
لا يألوانك خدمة وحراسة .

الأميرة : لا يكون يا مولاي إلا كما أشرت .

[تندفع بثينة بالزورق وتغادر الملك — وقد أطرق

مليا إلى أن بدا لمقلاص أن ينهه من هذه السنة] .

مقلاص : مولاي إن الشط قريب وإن الأرض أصلح مجلسا لمثل
ما أنت فيه من الهم والتفكير .

المسلك : كيف رأيت بثينة وكيف وجدت جراتها يا مقلاص ؟

مقلاص : تلك اللبابة من هذا الأسد يا مولاي .

المسلك : ما كل جرىء فطن ، وهذه الفتاة جمعت الجحا والشجاعة .

إنها تعلم أنني رجل رقيق القلب مجيب العاطفة وتعلم كذلك
 أن شيئاً من النفور قد دخاني نحو أمها منذ حينٍ فانظر
 كيف تحيلت حتى ذكرتني العهد القديم . فوالله ما أنا
 الساعة بأقل حبا للرميكية ولا عطفاً عليها منى منذ عشرين
 سنة . جدّف يا مقلاص جدف . سبحانك اللهم جعلت
 الولد سفير المودّة والرحمة بين الوالدين .

[يندفع الزورق] .

المالك [يتغنى] : الجوز، اللوز، ياربّ الفوز .

مقلاص [يجيب] : الجوز اللوز بوادي الحوز .

[سنار]

الفصل الثاني

« خان التيمى فى أشبيلية حيث صنعت الموائد والأرائك وجلس اليها »
« قوم يتخذون ويختسون الشراب . ابن حيون منفرد وحده الى مائدة »
« وأبو القاسم قادم عليه من باب الخان . حريز يجلس الى مائدة أخرى »
« وأمام ابن حيون . ورجال هنا وهناك يلعبون النرد والشطرنج »
« أو يطالعون بعض الرسائل »

أبو القاسم : ابن حيون ؟ ما أطيّب هذا اللقاء .

ابن حيون : سيدي أبو القاسم يا مرحبا يا مرحبا هنا صفة لينة
ومجلس كريم فلو جاسنا ساعة نتحاث . أزارى أنت أبا القاسم
أم جئت الخان في شأنٍ يعينك .

أبو القاسم : بل إياك قصدتُ يا ابن حيون . وإن الشوق اليك لشديد .

ابن حيون : شوق بعضه من بعض يا أبا القاسم ولكن من أنباك أنى
مقيم بخان التيمى .

أبو القاسم : لقد عرفناك كالروادِ الرجل . لا ترى إلا في خانٍ أو عند
دوارسِ الأحجار .

ابن حيون : الخانُ والسوقُ يا أبا القاسم مدرستان من مدارس الحياة
يتنفع بهما الرجلُ الأريب ... ألسنتُ في هذا الخانِ كل يومٍ
أبدل أهلاً بأهلي وجيرانا بجيران واستعرضُ صوراً متحركةً
من الخلائق كلها احتجبتُ صورة خالقتها صورة ... وكيف
حال أشبيلية يا أبا القاسم وهل من حوادثٍ هناك ؟

أبو القاسم : الحالُ إن لم يصلحها الله فمالها من صلاح . والحوادثُ
يا بن حيون تتوالى ولا تنتوى واليومُ مغربٌ والغدُ مكفهر .

ابن حيون : وابنُ عباد في غوايته مستمر !

أبو القاسم : خل ابن عباد يا أنحى لا تجر ذكركه بسوءٍ فإنه السيفُ الذي
يرجوه العرب . والحِصنُ الذي يحتمون غداً فيه .

ابن حيون : لم تُنصفُ يا أبا القاسم . طبعت للعربِ من الخشب
سيفاً وبنيت لهم من الشفير الهاثر حصناً .

أبو القاسم : إلتق الله يا بن حيون ... بعض هسدا البغى ... للمعتد من المحاسن ما يغطى على مساويه . أجهلت إحسانه على أهل العلم وعطفه على أهل الأدب ؟ أجهلت كيف يربي أولاده تربية لم نعرفها من الأمراء والملوك ؟ أجهلت كيف يعامل الروميكية زوجته الفاضلة معاملة تحسدها عليها عقائل الأندلس ؟

ابن حيون : آه يا أبا القاسم من ههنا دأى وههنا ثارى عند صاحبك
 ابن عباد .

أبو القاسم : يا عجبا كل العجب . ما هذا الثار ما حديثه ؟

ابن حيون : اسمع أبا القاسم وأنصتنى .

أبو القاسم : تكلم يا بن حيون فكلى مسامع .

ابن حيون : كنت فى صدر شبابى صيادا شابا مليحا رأسى مالى شبكة وقوام معيشتى سمكة ، وكانت تختلف إلى المواضع التى اختلف إليها من النهر للصيد وابتغاء الرزق صببية غسالة حلوة الدلال بارعة الجمال كأن حديثها السحر الحلال .

فانعقدتُ بيننا ألفة وكانتُ لنا مجالس على الماء كأنها
أعراسُ النهرِ ولقاءاتٌ على الوادى الكبير كأنها أعيادُ الدهرِ ،
أحببتُ الصبية وأحببتني وتكلمنا فى الزواج وشرعنا نأخذ
له أهبتة .

أبو القاسم [مقاطعا] : و بينما أنما على ذلك طلع عليكما من النهر فلكُ عليه
شارة الملك ، يحمل ملكا شابا جميلا فنظر الصبية فراعته حسنها
وكلها فأعجبه أدها . وارتجلت الشعر بين أذنيه فبلغ إعجابه
بها الغاية فتزوجها من يومه فمألت قصوره غبطة وبهجة
وولدت له الشمس والأقمار . هذا حديث الرميكية يابن
حيون وهذا خبر زواجها يعلمه كل من فى الأندلس
ويتناقلونه بالإعجاب ويتحدثون أن بنت الشعب نزلت
قصور الملك من أول يوم نُزول الأقمار فى هالاتها ، وأنها
من عشرين عاما الى اليوم قدوة عقائل الأندلس والمثال
الأعلى بين أميراته ومليكاتة ؟ .

ابن حيون : وما كان ذنبي يا أبا القاسم حين احتقرت حبي واستهانت
بخطيبي؟ وكيف تريد مني بعد ذلك أن أكون لصاحبك
المعتمد من المخلصين .

أبو القاسم : هب الأعرس كان معكوسا يا بن حيون ، وهب الفلك الذي
وقف يومئذ بكما كان يحمل ملكة شابة فاتنة الجمال يمينها
الجاء وفي شمالها المال فنظرتك فأحبتك ودعتك لتبني بها
وتشاطرهما عزة الملك وثراء المال — أترأك كنت تُعرض
عن الملكة وفاء بعهد الغسالة . لا والله يا بن حيون ما كنت
فاعلا ذلك . وهذا ما فعلت الرميكية . رأيت ملكا كبيرا
وشبابا نضيرا وفضيلا وأدبا غزيرا فحلت نفسها من ذلك
الوداد وفضلت أصيد على صياد . عرفت يا بن حيون أن
ذنب الرميكية ليس بالعظيم كما توهمت . بقي المعتمد وأنا
لا أجده اقترب اليك ذنباً أو أراد لك ضراً بل أنا أقسم
لو علم ابن عباد يومئذ بما كان بينكما من الحب وما صرتمما

اليه من الخطية وشك الزواج لأخذكما في كنفه وتكفلت
لكما نعمته بالزواج ونفقتيه ، وبالبيت وجهازه وبالضيعة
التي تغل عليكما وتبقى بعدكما على الأولاد .

[ابن حيون مطرقا] :

أبو القاسم : ابن حيون . مالك مطرقا لا تنيس . ما بأل عيذك تمتلئان
استرح يا أنحى للبكاء واسكب دموع الندم .

ابن حيون : الآن استرحت يا أبا القاسم وانطرح عن صدري أتون
من الحقد حملته عشرين عاماً حتى حنى الظهر وأكل
الصدر وأدنى من القبر .

أبو القاسم : مسكين أنت ابن حيون إن حقد عشرين عاماً لو جمع
وقذف به في جهنم لكان لها منه وقود لا ينفد .

ابن حيون : لقد شفيتني أبا القاسم من ضلالي القديم فأرشدني كيف
أعتذر إلى الرميكية عن سوء ظننت وبغض أسرت
وأعلنت وكيف أكفر عما سلف مني في ذات المعتمد من

جهرِ السوءِ وهمسِهِ .

أبو القاسم : يغفر الله لك يا بن حيون إن الحقد ما نخرج من قلب
إلا دخلته الرحمة وإني لأرجو أن ستحبَّ صاحبك
وترحمهما وتحسن إليهما كلما وجدت إلى الإحسان سبيلا .

[يطوف قيم الخان على الجالسين حتى يقف به الطواف]

[على المسائدة التي جلس إليها حرير وابن لا طون]

قيم الخان : لعلَّ السيدين قد وجدا الراحة في هذا الخان الصغير ببنائه
الكبير بأقدار زوايده ونزلاته ؟

حرير : ومن السيد ؟

ابن لا طون : هذا الأديبُ التميمي صاحبُ الخان وقيمه .

قيم الخان : لعلَّ أيها السيدان بحضرة الأمير حرير أسيد الأندلس
وصديقه ابن لا طون نمر الجزيرة .

ابن لا طون : هو ذلك يا أخا تميم . هذا الأميرُ حريرُ بطلُ الأندلس
وواحدُه وأنا ابن لا طون خادمُه وكاتبُ ديوانه .

قيم الخان : يا طيب هذه الزيارة وما أعظم شرفي بها ، لقد مر بنا أيها الأمير منذ ساعة ركبنا حدثونا العجب عن ذلك السباق الذي أقامه ملك الفرنجة الفونس في معسكره إكراماً لك وحفاوةً بك وخبرونا كيف احتلت على الطاغية فرقت من ذلك الجيش الجرار ناجياً بجوادك الصاعقة وظافراً بالأمير بطرس شقيق الطاغية .

حرير : وكلاهما الساعة تحت سقف خانك هذا . ففي بعض غرفة بطرس أمير الأسبان يأخذ قسطه من الراحة . وفي الإسطنبول الصاعقة أمير الجياد يعلف ويستجم .

قيم الخان : يافرحا يا شرفا . أخو الطاغية أسير في خاني نبا والله عظيم لا تطلع شمس الغد حتى ينتشر في الأندلس فتشتغل الدنيا بالتميم ويهتم بخانه الناس .

حرير : والصاعقة أمير الجياد أنسيته يارجل ؟ إن اسطبلك ليتيه به على مغاني الفرنجة وقصورهم فاذهب فمر رجالك أن يعتنوا

به وليأتوا بما كان عليه من الأمتعة والأسباب فيضعوا
ذلك كله في هذه الزاوية من الخان .

قيم الخان : سيكون ما أمرت ياسيدي .

[يخرج الأمير بطرس من غرفة الخان]

[فيهمض حريز وابن لاطون حفاوة به]

الأمير حريز : الأمير بطرس ؟ لعلك أخذت قسطك من الراحة .

الأمير بطرس : أجل قد استرحتُ يا حريز والآن خبرني ما أنت صانع بي
لقد أصابت الحُبالة فما أنت صانع بالصيد .

حريز : إنها أيها الأمير حُبالة كريمة .

بطرس : ولكنني على كل حال أسيرك يا حريز .

حريز : أجل ولكنك الحاكم في الأسر .

بطرس : لم تنصف أنحي الملك يا حريز ، اطمأنّ عليك فخذته

ووثق بك وختته وأطلق لك جوادك الصاعقة وأسرت

أخاه .

حريز : نحن في حربٍ معكم أيها الأمير والحرب لا تُسأل عما تفعل

وأنا صاحبُ حصنٍ للعرب يحاصره أخوك وفي الحصن
أبطالٌ لا يعرفون الخوفَ ولكنهم بشرٌ يعرفون الجوع .
ومنهم المرأة والصغير والشيخ الفاني الكبير ، وحصني يوشك
أن يسقط بعد طولِ الحصارِ وضيقه .

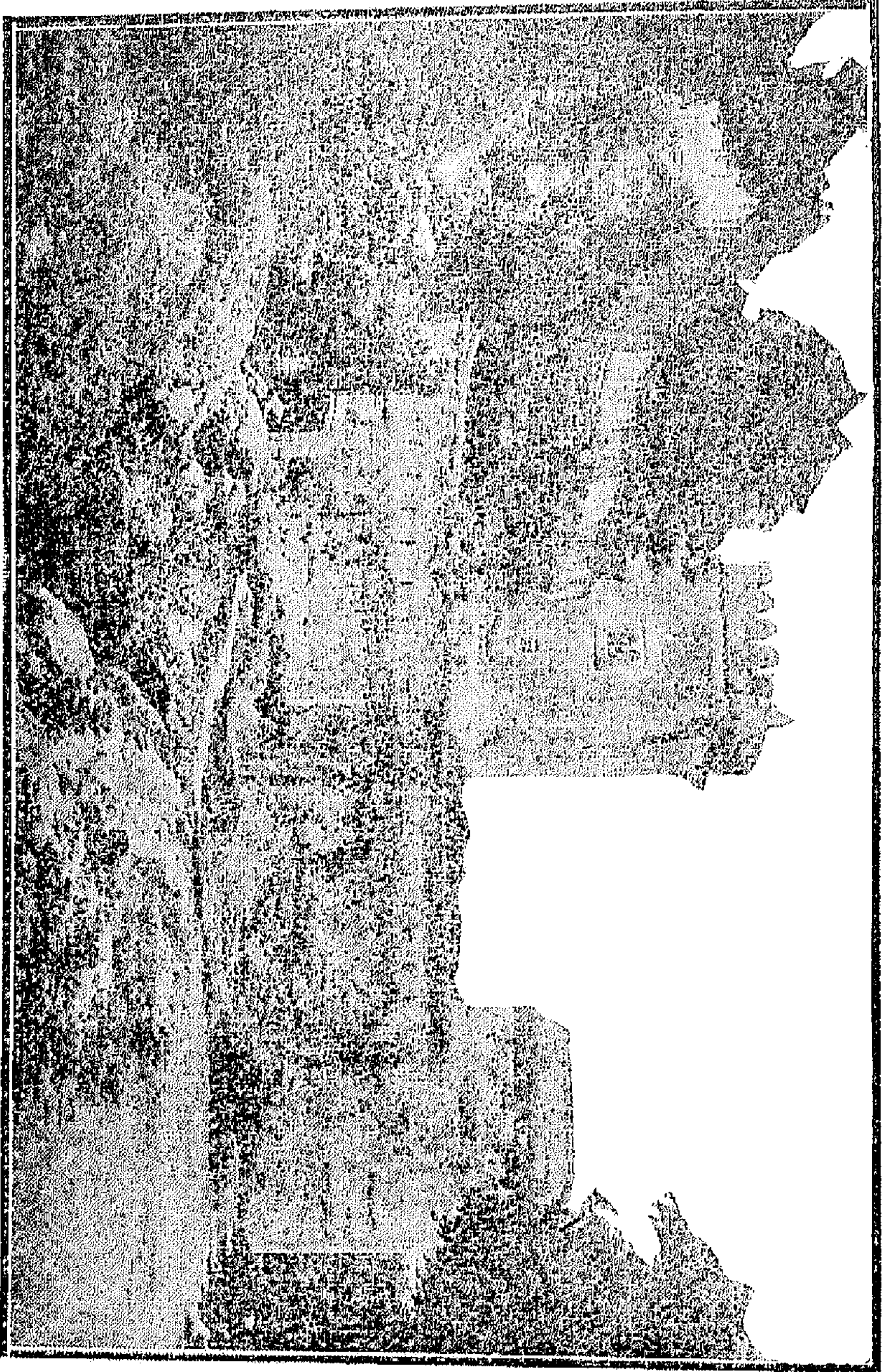
بطرس : إذن يهزمك أنت يخرج النساء والأطفال والشيوخ
من الحصن .

حريز : أراك فهمت أيها الأمير .

بطرس : إذن فاعلم يا حريز أنك إن خليت الآن سبيلي فرجعت الليلة
إلى معسكري وقسومي فانه لا يصبح الصبح حتى يطاق
سراح كل من في حصن رباح وينالهم من برأخي وعطفه
ما ينسيهم جراحهم ولا ينزع من رجالك سلاحهم بل تترك
للأسد أظفارها .

حريز : هذا ما أبغى أيها الأمير .

بطرس : وأي الأقسام تريد أن أعطيك عليه ؟



قائمة من قلاع الأندلس

حرير : إن الرجل الشريف كلمته قسم وإشارته يمين ، فأنا أكتفى بما سمعتُ من وعيدك فانطلق الآن محروسا بعناية الله وعاد لأخيك الملك فباغته تحيتي وإجلالي وخبره بأن ربحي من ذلك السباق كان عظيما فقد غنمتُ صحبة أخيه الأمير النبيل الكريم وغنمتُ أيضا خلاص رجالي في الحصن .
ونخرجتُ فوق ذلك من الميدان بكنوز طليطلة وجواهر ملوكها بنى ذى النون .

الأمير بطرس : كنوز طليطلة؟ نخرجتُ بها بين عين الجيش وأذنه ، يالك من داهية عتيد . أكانتُ هذه الكنوز معك حين أتيت للعسكر؟

حرير [ضاحكا] : كلا أيها الأمير بل كانتُ في طليطلة وفي خزائن ملوكها بنى ذى النون وإنما احتلتُ حتى حملتُ إلى مع الصاعقة إذ أمر أخوك الملك أن يذهب إلى المدينة المحصورة من رجاله ورجالي فمن يأتي بالصاعقة .

بطرس : عجبا . لقد رأيت الصاعقة حين جىء به من طليطلة فلم
أر عليه شيئا من الأجمال والأثقال فهل كان يحمل في بطنه

الكنوز ؟

حرير [ضاحكا] : ولم لا تقول إنها كانت على ظهره أيها الأمير

(مناديا) يا تيمى .

التيمى : مولاي .

حرير : إدفع الى الأمير جواده قيصر وشيعة بفارسين من أشد

رجالك يرافقانه حتى يبلغ خطوط الفرنجة .

بطرس : فى حفظ الله يا حرير .

حرير : بدمية الله أيها الأمير .

[يخرج حرير مشيعا الأمير بطرس الى باب الخان

ويعود فيجلس على مائدة مع ابن لاطون]

ابن لاطون [يسأل حرير همسا] : لقد ذكرت أيها المولى كنوز طليطلة

للأمير الأسباني فأين هى منا الآن ؟

حرير : هى معنا يا ابن لاطون بين أعيننا وفى خفارة سيفينا ولكنك

لا تراها ولا يقع في وهم واهيم بأى موضع هي من الخان .
[يسمع من خارج الخان مناد ينادى متغنيا]

منادى : أنا ذا طاهٍ أتاكم من شريشٍ بقطائف

من يذق حلواى يبرز حريزٍ غير خائف

حريز : لله ما ألدَّ الصوت وما أحسن الشعر .

ابن لاطون : وإنا نرجو ألا تكون القطائف دونهما لذة وجودة .

[حريز متجها الى باب الخان]

حريز : تعال يا صاحب القطائف . أتعرف أيها الرجل حريزاً

الذى أشدت بذكره فيما أنشدت ؟

البائع : أو تجهله أنت كائنا من كنت وهو عنتره البيد وحيذرة

الحمي ونادرة الزمان ؛ أعرفه بأمسه ويومه كما يعرفه سائر

الناس .

حريز : وكيف صفته ؟

البائع : رجل عملاق أشم طويل الساعدين عبل شمردل .

حريز : كفى يا شريشى كفى ! كشف عن بضاعتك لنرى أين

المنادى عليه من النداء .

[البائع يعرض الصينية مكشوفة]

صوت من الحاضرين : تعالى الله ما أشهى .

صوت آخر : تعالى الله ما أطيب .

حرير : بكم تبغني هذه الصينية يا رجل .

البائع : كل ما أعطيت مقبول أيها السيد الكريم .

حرير [ويلقى إليه صرة دنائير] : خذ هذه الصرة مباركا لك فيها .

البائع : ولكم في القطائف أيها الطاعم الكريم .

حرير [للحاضرين] : تعالوا أيها الإخوان نتقاسم هذه اللقمة الطيبة .

تفضلوا . أقبِلوا . ذوقوا معنا من هذا اللون الذي ذاعت

شهرته في البلاد حتى قيل إن من دخل الأندلس ولم يذق

من مجبنات شريش فما عرف من متاع الأندلس شيئا .

أحد الحاضرين : إن لهذه القطائف لطيبا يسكر من بعيد .

[الجميع يأكلون]

أحمدهم : ما ألد .

ثالث : ما أطيب .

حرير [وهو يأكل ملتفتا الى ابن حيون] : ما بال الأديب لا يجيب الدعوة .

ابن حيون : إني صائم أيها الأمير .

حرير : تقبل الله منك وإن أنت لم تقبل منا .

أحد الحاضرين [على المائدة وهو يأكل] : هذه المائدة جمعت العلف

والشرف . فوالله ما كان أحدكم يحلم أن يؤاكل أسد

الأندلس .

آخر : حق إن هذا هو الشرف العظيم .

[يفرغون من الأكل] .

حرير : يا الله ما هذا الدوار ؟ ! ابن لاطون

ابن لاطون : وأنا أيضا كأني داخل في غيبو به .

رجل [لصاحبه] : كيف تجد الدنيا في عينك يا ضبي ؟

الضبي : مظلمة صاعدة نازلة .

الرجل : وأنا أيضا أجد الدن... .. يا .

أبو القاسم : لقد رُحمت بصيامك يا بن حيون فاني أظن القطائف
طبخت بالبنج وأخذت تصرع... .. نى .

ابن حيون [مذعورا] : يا ويح للجماعة غودروا صرعى وويح لك أبو القاسم
سقطت سلب العقل والحراك .

[يظهر صاحب القطائف ويصفر فيدخل جماعة من اللصوص] .

ابن حيون [وقد امتلأ المكان باللصوص] : يا الله! امتلأ المكان باللصوص .
الآن تبيدت أن القطائف كانت مصيدة لم يعصمني منها
إلا الصيام .

ثم لنفسه [همسا] : تناوم يا بن حيون "ويتناوم على مقعده" .

صاحب القطائف : يا أصحاب الباز ، غدا يتحدث الأندلس أن صاحبكم
صرع الأسد وأخذ الصاعقة من فارسه الجبار وقد
خصصت نفسي بأمير الخيل الصاعقة فهو حصتي من غنائم
اليوم وما سواه فهو لكم تقسمونه بينكم فدوونكم الجيوب

ففتشوها وعليكم بالحقائب فانبشوها وخذوا أثاث الخان
وعروضه كل ما خفت زنته وعظمت قيمته .

أحد اللصوص : ولكن الصاعقة عريان لا سرج عليه أيها الزعيم .

البازي : بجياد الأندلس جميعا هو كاسيا كان أو عريانا .

لص آخر : لقد لمحت أيها الزعيم في زوايا الاسطبل سرجا محلي بالذهب
والفضة .

البازي : أو أتم تاركون لي السرج المذهب المفضض أيها الأصحاب؟

اللصوص : نحن وما نملك للزعيم .

البازي : إذن فاسبقني يا شهاب فضع السرج المذهب على الصاعقة

وانتظرنى هناك .

[يأخذ اللصوص في السلب والنهب وينسلون واحدا إثر واحد

بمسا حوت أيديهم ويبقى رجل منهم فينحني على سرج عاطل

يتأمله ويظن ابن حيون المكان قد خلا فيستوى في مجلسه

ويقع نظر اللص عليه فيرمى السرج العاطل عليه قائلا ...]

أحد اللصوص [لابن حيون ويرمى عليه السرج العاطل] : خذ يا شمشيخ السوء

هذه الخشبة لعل فيها العوض عما أفاتك الصيام من
القطائف .

[ويخرج اللص] :

ابن حيون [لنفسه] : شئت يد اللص ، لقد قذف السرج بقوة حتى
كسره ولو أصابني به لتركني جثة بلا روح ، يا لله ، ترى
أى شيء في فروج هذا السرج .

[يدنونه ويمسك به ثم يتأمله ويدس فيه يده] .

رب ما هذا الحصي ؟ أى مجنون يملأ سرجه بهذه
الأحجار ... !

[ثم يستخرج عددا من الأحجار الباردة

ويقلبها بين يديه مذهولا قائلا] :

لآلى ! يواقيت ! أبا القاسم قم فانظر إن الذى حشا
رأسك بالعلم والفقہ قد حشا رذنى بالآلى واليواقيت .

[ثم لنفسه] يا ابن حيون أين يذهب بك ؟ هذا كنز ملك عظيم من
أقبال الروم جدّ به الحرص وخاف امتداد الفتنة الى كنزه ،

فاختار له هذا السرج البالى وفي نفسه أن يصونه أو يموت
دونه فأخلف الدهرُ ظنونه .

[يجمع اللآئى بين الدهشة والاضطراب و يقول] :

ابن حيون [وينظر الى اللآئى] : لآئى ! يواقيت ! ماس ! زمرد !
رباه هذا عجل الذهب ، هذا هو معبودُ الناسِ بعدك
هذا هو المال .

[ستار]

الفصل الثالث

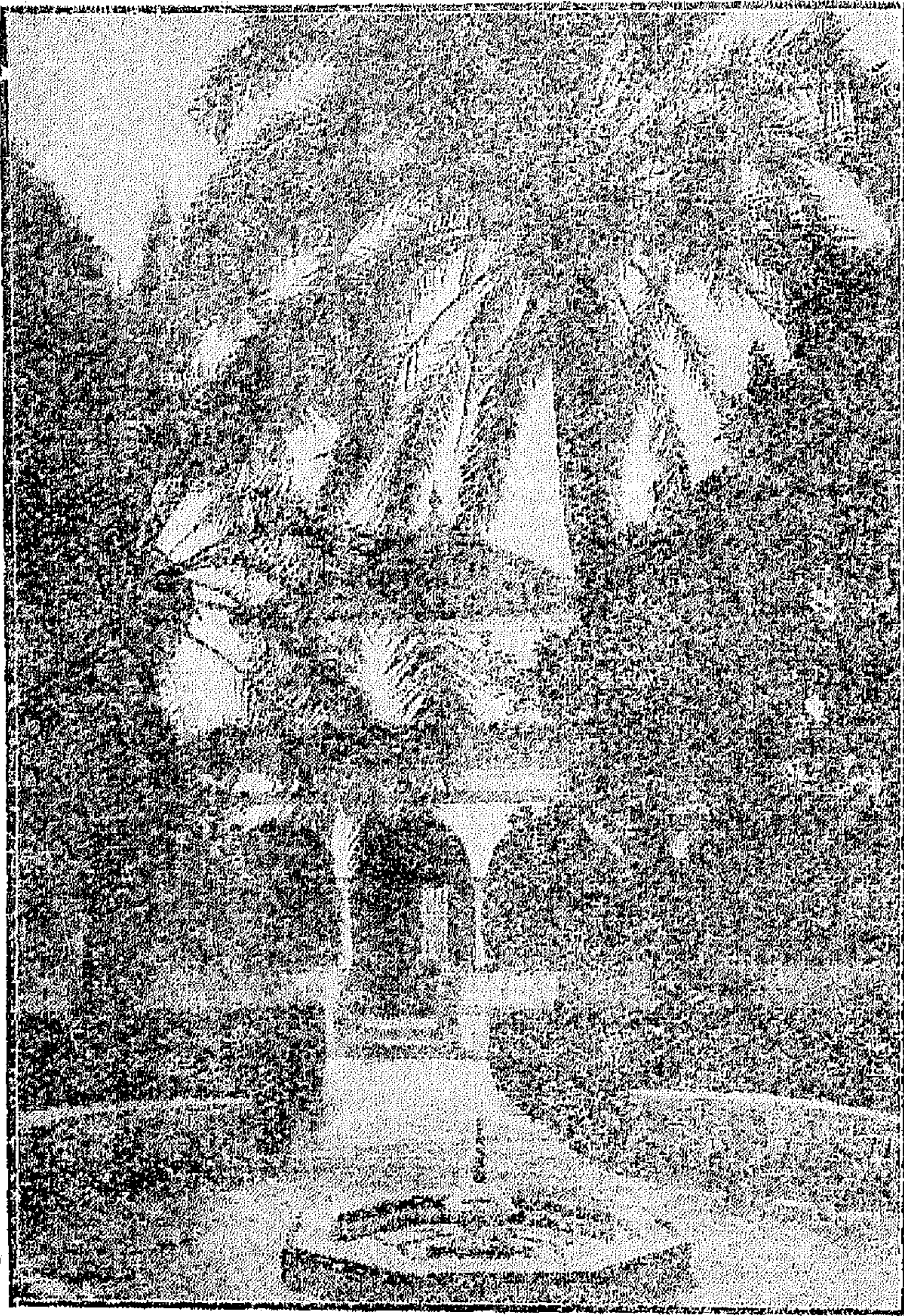
« بستان أمام دار أبي الحسن ، الى يمينه باب الدار ومن ورائه شاطئ »
 « الوادى الكبير — أبو الحسن جالس فى هذه الساحة وبين يديه »
 « تابع له هو (سعيد) وجماعة بالقرب منه من السامرة يتها مسون »

أبو الحسن : ما هذا ؟ ما أرى ؟ إني لا أعرف هذه الوجوه ؛ فمن
الرجال يا سعيد وما يتغنون ؟

سعيد : هذه الوجوه تحوم على الدار منذ حين يا مولاي وتسال
عن أجزائها وتستفهم عن مشتملاتها ؛ وتحدث عن
المكتبة خاصة وما عسى تضم من نفائس الأسفار .

أبو الحسن [رافعا وجهه الى السماء] : لطفك اللهم ! لقد طبع الناس بالنكبة
واشتغلوا بالمنكوب ، وما أروع الناس بالناس .

[ثم الى الرجال] : أيها الرجال تعالوا فان كنتم ضيوفاً فيا مرحبا بكم ، وإن



دار أبي الحسن الساجر

كانت لكم حاجات تريدون قضاءها فهاتوا أذكروا .

أحدهم : إيذن لي يا سيدي التاجر أن أصرحك القول فليس
مركزك بسر ، والدار معروضة لا محالة ، فلنبعها اليوم ،
فقد تغبن جدا في الغد .

أبو الحسن : أتشفق على الدار أن يكسد سوقها في غد ؟ أم تشفق
على نفسك أن يكون السمسار غيرك ؟ ... بكم قومت الدار
أيها الوسيط المجتهد ؟ وأي ثمن تعطون ؟

أحدهم : عندي المشتري لها بخمسين ألف دينار يا سيدي التاجر .
تحمل اليك في الصباح إن قبلت .

أبو الحسن [إلى الثاني] : وأنت فماذا عندك ؟

الثاني من السامرة : عندي الراغب الذي يزيد خمسة آلاف دينار .

أبو الحسن [مشيرا إلى الثالث] : وهذا الثالث الآخر . ماذا عنده ؟

الثالث : عندي أيها السيد أن صديقا لك لا أسميه يريد أن يشتري
مكتبك بالثمن الربيع فهل انت بائع ؟

أبو الحسن [في غضب] : والمكتبةُ أيضا أخذوا يتحدثون في شرائها !
 ووسادتي وفرش نومي أما لها عندك من طالب أيها
 الرجل ؟ أعزب عنى ! أعزب وخذ صاحبك معك
 وانطلقوا . إن النكبة لم تبلغ بعدُ تمامها ولم نباغ معها
 الى اليأس .

[يقترب شيخ غريب الثياب ملتفتا الى الرجال الثلاثة قائلاً] .

[المغربي الشيخ] : تلك والله وقاحة !

أحد السامرة : حجلت فيها يا وجه النخس !

[ينصرف السامرة] .

أبو الحسن [يناجي نفسه] : ظهرَ فيك السمسارُ يادار ! اللهم أنت
 أعطيتَ وأنت أخذتَ وأنت تعلم أنى لستُ التاجر اللص
 ولا المحتال ، فألطف بي فيما قضيتَ وأعين ولدى حسوناً
 على ما يواجه من فرار النعمة وانتقال الأيام [ثم يشعر براحة
 ويقبل على الشيخ المغربي قائلاً] : وأنت يا شيخ البربر ما وراءك ؟
 المغربي : أنا زائر ياسيدي التاجر . وربما كلمتك في شأن يكون

فيه ارتياحك ورضاك .

أبو الحسن : مرحبا بالزائر . تعال يا سيدي نتحدث على هذا الفضاء

الطاق . وفي ظل هذا الروض الكريم [يسيران قليلا ثم يجلسان] .

المغربي : أنا يا سيدي التاجر رجل من أغنياء المغرب . حبب الله

إليّ السياحة في أرضه . أجوبُ مذ كنتُ البر وأرفعُ

شراع البحر . إلى أن دفعتني الأسفار منذ أيام إلى

مدينتكم هذه أشيلية الغناء وكنتُ سمعتُ عنها وقرأتُ

الشيء الكثير . فلما نزلتها ودخلتُ في مواضعها وخرجتُ

ملاّت نفسي وشغلتُ خاطري . فاعتزمتُ أن أجعلها

قراري ومأق عصاي في رحلة الأيام .

أبو الحسن : ما أسعد أشيلية يا سيدي بابنها الحديد البار .

المغربي : مهلا يا سيدي التاجر وخذ الحديث إلى آخره ، لم يبق

في نفسي من هوى الأسفار إلا جولة أجولها فيها وراء هذا

الأندلس من ممالك الفرنجة وديار . فاذا كتب الله لي

السلامة؛ أتيتُ هذه المدينة فاتخذتها وطناً ودياراً .

التاجر أبو الحسن : مشيعاً بالسلامة والكرامة .

المغربي : ولكني مزيجٌ سفراً شاقاً بعيداً . وما يدرى المسافر ما وراء

الغربة من الفجاءات ، وما تدرى نفسٌ بأى أرض تموت ،

ومعى يا سيدى من كريم الجوهر ونادره ما أخشى عليه

السَّرقة أو الضياع وأنا منقطع الوارث لا أهل ينتظرونى

ولا ولد ، ولقد مررتُ بدارك هذه مرارا فكنتُ كلما

زدتها تأملاً زادتنى بهجةً وروعةً . حتى حدثتنى النفسُ

بشرائها .

أبو الحسن [فى غضب] : أنت أيضاً ياسيدى أتيتَ تساومنى فى الدار !

المغربي : دعنى أستتم يا أبا الحسن فانى جاد ! ما أنا بالمساوم ولا بالرجل

الذى يلتمس الفوائد لنفسه من مصائب الناس ؛ ولكنى

جئتُ أخطبُ اليك الدار وأجعلُ مهرها ما أقدرُ أنا

لا ما تقدرُ أنت ولا الناس .

أبو الحسن : ماذا تريد يا سيدي ؟ بين ! صرّح ! إني لا أفهم ما تقول !
 الشيخ المغربي [ويخرج عند لؤلؤ من كفه] : هذا عقد من كبير اللؤلؤ وخالصه
 قيمته زهاء المائة ألف دينار نخذه يا سيدي ثمننا لدارك
 وأبق فيها وأحرسها لي حراسة القيم الرفيق . فان لقيتكم سالما
 بعد ثلاثة شهور تمضي من يومنا هذا نزلت في داري ، وإن
 مضت هذه المدة ولم أعد ، بقيت عليك الدار مباركا لك
 فيها ولولدك .

أبو الحسن : ولكن يا سيدي هذا الثمن كثير جدا لدار يشتغل بها الآن
 السمسار والدلال .

المغربي : بربك أيها السيد لا تعرض عن خير ساقه الله اليك
 ولا تقف لأهل المروءات في سبيلهم ولا تستنكر على رجل
 قد زاد ماله حتى ما يدرى ما يصنع به أن يعين بفضلة
 منه كريما مثلك طالما آسى الجروح وأفال عثرات الكرام
 فأجز الصفقة يا سيدي أجزها .

أبو الحسن [ينظر الى العقد قائلا] : أمانة ألف دينار؟

المغربي : أجل يا سيدي في أقل تقدير .

[أبو الحسن يأخذ العقد ويتأمله ويقبله وفي هذه اللحظة يرسو

شراع فنزل منه بثينة متنكرة في ثياب شاب ومعها جواهر ولؤلؤ]

أبو الحسن : ماذا أرى ؟ ما هذا الشراع ؟ من الفتية ياترى ؟ إيدن لي

أيها الزائر الكريم وانتظرنى فاني عائد اليك من فوري .

[ينجيه أبو الحسن نحو القادمين من الشراع . المغربي

يزيل تنكره فاذا هو ابن حيون . حسون يلمح ابن

حيون من داخل الكشك فيناديه من وراء مجلسه] .

حسون : تعال يا بن حيون ألعبك الشطرنج .

ابن حيون : لبيك ياسيدي حسون .

[ويدخل ابن حيون الى حسون عند اقتراب أبي الحسن

من القادمين يسارع اليه ابن غصين ولؤلؤ وجوهر] .

ابن غصين (بثينة) : السلام عليكم يا عم .

أبو الحسن : وعليكم السلام يا بني .

ابن غصين : لمن ياعم هذا القصر المنيف وهذه الربوة الغناء ؟ .

أبو الحسن : هذا الكوخ يا بني لخادمكم أبي الحسن التاجر .

ابن غصين : تسمى غرفة الفيردوس كوخا ! هذا منتهى التواضع

ياسيدي التاجر .

أبو الحسن : ومن السيد ؟

ابن غصين : ولدك ابن غصين من أبناء أعيان قرطبة ، وهذان جوهر

ولؤلؤ صاحبى ورفيقا سفرى .

أبو الحسن : مرحبا مرحبا بشباب قرطبة النابه . إني أرى الدار

قد أعجبتكم يا بني . وإنه ليسرني ويشرف قدرى أن تدخلوا

فتقضوا ساعة مع ولدى حسون فاني أرى عليكم الفضل

والأدب والمجادة ، وحسوت لا يصاحب ولا يجالس

إلا أهل الفضل والنبل ، فتفضلوا أيها الأدباء وشرفوا

أخاكم بزورة وأنتم واجدون عند حسون كل ما يشتهي

النشء المثقف ، ففي خزانته ما قدم وما حدث من آيات

الطرب حتى عود زرياب .

جوهر [يصيح] : عود زرياب ؟

أبو الحسن : أجل يا بني ذلك العود الذي على أوتاره كان عواد الأندلس
يُسمع الخلفاء ما توحى إليه الجن من روائع الألحان
وتجدون كذلك عند حسون مكتبة لم يُجمع مثلها في البلاد .
قد حوت الذخائر في كل علم وفن .

ابن غصين : وكيف ولع فتاك ياسيدي بعلم الفلك ؟

أبو الحسن : أشد الولع يا بني وقد جمع الكثير من نفائس المخطوطات
فيه وفي أولها رسائل المنجم الضبي .

ابن غصين : المنجم الضبي ؟

أبو الحسن : أجل يا بني وأذكر أنه من شهرين أو أكثر أو أقل ،
قد انتهت إلى حسون رسالة مما وضع الضبي فدخله
من ذلك فرح يشبه الجنون .

ابن غصين [لنفسه] : رسالة للضبي من شهرين أو أكثر أو أقل ؟ ! ثمراك

يا قلب إنه هو ؛ وبشراك يا عين ستكتحلين به الساعة
 [ثم الى أبي الحسن] لقد شُقتنا الى ولدك الفاضل أيها السيد
 فأين من يستأذن لنا عليه ؟ .

أبو الحسن : يا مرحبا ! يا مرحبا ! ما أعظم حظ حسون . إتبعون
 يا سادة اتبعون ، فاني دليلكم الى ناديه ، واني أرجو أن
 سيعجبكم ، إن حسون شابٌ قد ألقى الله عليه محبة للناس .

[أبو الحسن مع ابن غصين ورفاقه يقفون أمام

كشك حسون . ابن غصين يلحظ لعبة الشطرنج] .

أبو الحسن [لابن غصين] : هو ذا حسون ياسيندى يلعب الشطرنج
 مع صديقي لنا قديم كريم لا تخلو منه الدار ساعة .

[أبو الحسن ينادى ابنه] .

أبو الحسن : حسون يا ولدى .

حسون : لبيك .

أبو الحسن : هذا ابن غصين من نبلاء قُرطبة ومعه صاحباه ورفيقا
 سفره يريدون أن يجتمعوا بك ساعة .

حسنون : يا مرحبا ! يا مرحبا ! أهلا وسهلا بالسادة .
 أبو الحسن : لقد جمعتك بضيفانك الكرام يا حسنون والآن أترككم
 في حراسة الله لأعود الى زائري المغربي فانه بانتظاري
 وأخاف أن يأخذه القلق .

[أبو الحسن يرجع يفتش عن المغربي فلا يجده] .

أبو الحسن : يا لله . أين الشيخ ؟ أين ذهب [مناديا] سعيد .
 الخادم : لبيك يا مولاي .

أبو الحسن : ما صنع الله بالشيخ المغربي الذي كان ههنا منذ لحظة ؟ .
 سعيد : لا أدري أين ذهب يا مولاي .

أبو الحسن [ينظر في يده وكان قد نسي فيها عقد اللؤلؤ] .
 أبو الحسن [لنفسه] : ويحي ما ذا أرى ! هذا عقد اللؤلؤ في يدي نسيتُه
 فيها يا نجلا ! ماذا يقول الرجل عني ؟

ابن حيون [من داخل الكشك] : سيدي أبا الحسن لقد لمحت زائرك
 المغربي خارجا من الدار يهرول فعبثا تبحث عنه .
 [حسنون مع ابن غصين ورفاقه وابن حيون] .

ابن غصين [لنفسه] : إلهي . صدقتني القلب ما حدث وقلمًا تكذب
القلوب ، هذا هو شاب قرطبة الذي لم يخل منه القلب دقة
[ثم الى حسون] الآن صدقتني الذاكرة فنحن ياسيدي
قد تعارفنا قبل اليوم .

حسون : وأين كان ذلك ؟ وكيف نلت هذا الشرف ؟

ابن غصين : في سوق الكتب بقرطبة من نحو شهرين أو أقل أو أكثر .
حسون : لله ما أعظم حظي . أنت والله ياسيدي ذلك الفتى المثلّم
الذي نازعته رسالة الضبي ونازعنيها حتى غلبته عليها . نعم
أنت هو ، وهذا صوته ، وهذه شمائله ، فكيف اهتديت
الى كوني أيتها السيد العزيز ؟ يا مرحبا ! يا مرحبا !
جعلها الله بيننا صداقة الدهر .

ابن غصين : ولكن أنت ياسيدي تلاعب صاحبك الشطرنج وأخشى
أن أقطع عليك لذة اللعب .

حسون : لا ياسيدي هذه لذة نجدها في كل وقت وأما لقائكم

والأنس بكم فلذةُ الدهرِ وِخِلسَةُ الأيامِ . تفضلوا ياسادة .

ابن غصين [بلوهر همسا] : إجتهد يا جوهر أن تلاعب هذا الشيخَ

وتشغله حتى يخلو لي وجه حسون .

ابن غصين [الى لؤلؤ] : وأنت يا لؤلؤ إذا أخذنا في اللعب فقم عند رأسيهما

ولا تدعهما حتى أهم بالانصراف .

جوهر [الى ابن حيون] : أتأذن ياسيدي أن أحل محل السيد حسون

في ملاعبتك .

ابن حيون : تفضل ياسيدي خذ مكان حسون وأرحني من قدرته

العجيبة على الظفر بالملاعبين ، ومن حظّه الذي هو أعجبُ

من قدرته .

ابن حيون [الى لؤلؤ] : وأنت ياسيدي أتحب أن تكون من النظّارة ؟

لؤلؤ : يا حبيذا لو أذنت ياسيدي .

[يتأبط ابن غصين ذراع حسون ويتمدان ناحية] .

ابن غصين : أحق أننا التقينا يا حسون ؟

حسون : أجل ! وكما نغان ألا نلتقى .
 ابن غصين : عنايةٌ ولطفٌ وتوفيقٌ أقدارٍ لأقدار .
 حسون : وقديما جمع الله الشيتيتين ، وطوى الأرض للبعيدين
 [يجلسان] .

ابن غصين : أتذكر يا حسون قرطبة وسوق الكتب ؟
 حسون : أجل وأذكر رسالة الضبي وكيف كنا نتنافس فيها ، وكيف
 غلبتكم عليها .

ابن غصين [مبتسما] : وأين هي الآن يا أنحى ؟
 حسون : هي هاهنا يا ابن غصين بالقرب منك وفي متناول يدك ،
 إن شئت انتقلنا الى المكتبة فأخذتها .

ابن غصين : لا يا أنحى بل دعها في موضعها من خزانتك فانها عندك
 في الحفظ والصبون وكأنها عندي ، ويكفيني نظرة ألقيا
 على الرسالة من حينٍ لحين كلما جئتُ دارك زائرة .

حسون [في دهش] : زائرة ؟

ابن غصين [لنفسه] : ويح لساني قد عثر وكشف السرَّ القدر ! .

حسون [مبتسما] : كيف تأنثت أنحى؟ ما أنت الفتى الذكر؟ أما كفاك
هذا الصوتُ الساحر الرنة اللذيذُ النَّبرة حتى جمعت إليه
أنوثة اللفظ وابن الكلام؟

ابن غصين [في تلجلج وغضب] : عثرة لسانٍ يا شاب فمتر عليها مرَّ الكرام .
حسون : وما أثارك يا أنحى وليس فيما قلتُ ما يُغضب ؟

ابن غصين : لنطو هذا الحديث ولنرجع لما كنا فيه ... أما يسرك
يا حسون أن أخاق لزيارتك العجل والأسباب وأن أجعل
رسالة الضبي سائماً الى دارك كلما اشتقتُ اليك ؟

حسون : كل السرور يا بن غصين ، أنا واحدٌ أبى لم أعرف عاطفة
الأخوة ولم أجدها حناناً ولا رقةً ويخيّل إلى منذ
عرفتك أن قلبي يفيض منها وأن وجداني بها مترع ، فهل
ترضاني أخاك شقيقاً برّاً بك شقيقاً ؟

ابن غصين [ويتهد] : يا مرحباً وإن كنت حلات من قلبي محل أنحى
الظافر من أول يوم .

حسون : ويح أذنى ما أسمع ؟ وما أنت من الظافر يا بن غصين ؟
وما الظافر منك ؟

ابن غصين [ويتأجلج في الجواب] : عثرة أخرى ، ويح لسانى اختل عضبه
واختلط عضبه ، إغفر لى هذه أيضا وأنسها يا حسون .

[وكان ابن غصين ينظر الى رباط بذراع

حسون فوثب فى الحديث وقال :]

ابن غصين : وقى الله ذراعك بيمينه يا أنحى ، ما هذا المنديل ؟ ما وراءه ؟
حسون ؟ جرح اندمل أكثره وبقى أثره .

ابن غصين : بعد عنك الشر يا أنحى ، من جرحك ؟

حسون : هذا واحد من جراح لم يكن يرجى أن أقوم منها لو لم تلق
عليها العناية يدها الآسية الشافية .

ابن غصين : بالله إلا حدثتني حديثك . أطلع عليك اللصوص يا أنحى

فى مكان خالٍ من الناس فأبليت فيهم وأبلوا فيك ؟

أفاجأتك مصابة الباز بن الأشهب بفورخت رجالها

وجرحوك ؟

حسون : لا يا سيدي إن القتال الذي شهدتُ أعظمُ شأنًا وأنبلُ
أقرانا مما ذهبتُ إليه ظنونك .

ابن غصين : وما خبره وأين كان وكيف ؟

حسون : كان ذلك في قرطبة .

ابن غصين : قبل تلاقينا في سوق الكتب أو بعده ؟

حسون : بل بعد ذلك بأسابيع وكنْتُ نزيلًا على بعض خانات
المدينة فكان من عجائب القدر أني اكتشفت مؤامرة
تدبر في الخان لاغتيال الأمير الظافر وإزالة إمارته عن
قرطبة وكان شيطان الفتنة ورأس أفعالها هو الأمير حريز بطل
الأندلس المشهور فما أطلعتُ على سر المؤامرة وخطط
أصحابها حتى ثار ثائري و غضبتُ لوطني ولقومي فانسملتُ
من الخان ليلا وركبتُ جوادا كان معدا لركبته بوق
الثورة والفتنة فعدوتُ حتى أتيتُ قصر السوسان فنبهتُ
الأمير وحاشيته وحرسه ولم أكن الى تلك الساعة رأيتُ

للظافر وجها لوجه ولا حضرتُ له مجلسا وتأهب الجميع
 للقتال وما لبث الثوار أن طلعوا علينا آتين من نواحي
 المدينة يقودهم بطل الأندلس حريز فتلقيناهم بصدورٍ قد
 رحبت بالموت ونفوسٍ قد هشت إليه وذكرنا إذ ذاك
 الوطن وحقه وأشبيلية ومنتهى في الأعناق فحملنا حملةً
 تحميد عنها الجبال . وكان الظافر طيب الله ثراه .

ابن غصين [منزجاً] : حدثني يا سيدي عن الظافر؛ قل لي كيف قاتل؟
 وكيف قتله الغادرون؟

حسون : تسألني عن الظافر كيف قاتل؟ سل حريزا عنه فهو ينبئك
 أنه الأسد .

ابن غصين : وأين كنت من الأمير في ساعة البأس يا سيدي؟

حسون : كنت حوله أحى ظهره ويشد سيفي سيفه الى أن ناءت
 به جراحاته فسقط عن جواده وكنت أنا أيضا قد أسخنت
 بالجروح فسقطت الى جنبه حتى اذا أفقت من غشيتي

نظرتُ حولي فرأيتُ عند رأس الظافر هذا الصديق الذي
تراه يلاعب صاحبك الشطرنج الآن .

ابن غصين : وما اسمه يا سيدي ؟

حسنون : ابن حيون وهو من رجال العلم والأدب .

ابن غصين : وماذا كان من اهتمامه بالقتيل ؟

حسنون : طبع على جبينه قُبلة وبكاه ورحم ثم ألقى عليه رداءه .

[ابن غصين يدخل في الاغماء]

حسنون : ما هذا ؟ ماذا أرى ؟ ما أصابك يا أخي ؟ ما لعينيك

تغمضان ؟ وما بال رأسك يميل ؟ ويحي ماذا جنيتُ على

الشاب ؟

قد كان عن حديث الظافر لي غنى رب أصحاب أنا أم حالم

[وعند ما يميل ابن غصين في الاغماء تقع القلنسوة]

حسنون : هذه ضفائر فتاة قد هوت عنها القلنسوة فانسدت كجنج

الليل على جبين كغرة الصباح . أيها الملك الكريم لقد عبثت

بي إذ كنت تُتَنكر وتترجل فاعبث اليوم بقلبي ما بدا لك
فقد دب لك الهوى فيه ، إن شئت فتنكر ، وإن شئت
فاظهر فلا كتمن حديثك ولا قد سن سر هواك أن يذاع ،
ويلاه إن الإغماءة قد طالت . ابن حيون ... ابن حيون .

ابن حيون : لبيك يا سيدي .

حسون : أنا في حاجة إليك تعال وحدك أسرع .

[يحضر ابن حيون]

حسون : ابن حيون أنظر ما ذا ترى لقد أُغمي على ابن غصين
فاذا الظبي مهارة وإذا البدر يابن حيون شمس .

ابن حيون [بعد تأمل عميق] : يا لغرائب القدر هذا الوجه عرفته وعشيقته

قبل عشرين عاما من هذه الأيام وقد لقيت بعشيقته الدواهي .

حسون [مندهشا] : قبل عشرين عاما من هذه الأيام ! أهازل أنت يا عم ؟

ابن حيون : بل جاد كل الجاد يابن أخي . اسمع حسون هذه بنت

الرميكية . هذه أخت الظافر . هذه بنت ابن عباد .

[سنا]

الفصل الرابع

« باحسبى مقاصير قصر الزاهى »

« العبادية والدة الملك ابن عباد مع بثينة »

العبادية : لقد علمتُ يا بثينةُ ما كان من زيارتك لدار التاجر
أبى الحسن وجلوسك ساعة مع ولده حسون، وأني كنت
في زى الغلام وكان معك لؤلؤ وجوهر .

بثينة : ومن خبرك انخبر يا جدّة ؟

العبادية : عين من الحب وكتها بك ترعى خطاك وتحرس حركاتك
وسكاتك وإن كنت عزيمة الثقة بنفسك الأبيّة العالية
وخلقك الفاضل الشريف .

بثينة : أنتِ إذن يا جدّة كالمنصور بن أبى عامر لك في كل نادٍ
عين، وفي كل سامرٍ أذن .

العبادية : لا بل أنا عجوز يا بثينة والعجائز يتلمسن الأخبار ، وأنا
 أرمل ملك وأم ملك يتجسس لي من لم أندبه للتجسس
 ويحييني بالأخبار من لم أزود . ومهما يكن من الأمر
 يا بثينة فلا تنسى أننا ما أرخينا لك الحبل إلا ونحن نعلم
 أنك الفرس النجيبية التي إذا أرخى لها الرسن لم ينخش لها
 جراح ولا شرود .

بثينة : جعلني الله عند ظنكم يا جدّة . وببغاؤك نادر يا جدّة
 أنسيته ؟

العبادية : كيف أنساه يا بثينة وقد كان لدى كريمة وكان سيد الطير
 وكان أخفها ظلا وأبينها حكاية ونقلا .

بثينة : أتذكرين يا جدّة كيف أشفقت عليه فلم ترضى أن يترع
 من ريش جناحيه كما يصنع الناس بالطير الكريم فيأمنون
 طيرانه وفراره ، وإنما اكتفيت بوضع حلقة صغيرة من
 الذهب في رجله اليمنى تمنعه من النهوض وتقيده وإن كان

في الظاهر حرا يتنقل في نواحي القصر .

العبادية [مندهشة] : وماذا أخطر ببغائي نادر على بالك يا بثينة وماذا تريدن بذكر الحلقة .

بثينة : أريد أن أقول لك يا جدّة أن حالي كحال المرحوم نادر .
قيدتوني بجوهر وؤلؤ ومقلاص وبالعيون والأرصا
ثم زعمتم أني حرة طليقة أفعل ما أشاء .

العبادية [مبتسمة] : ولكن لا أظن حلقة الذهب تُثقل رجلك يا بثينة
فاني أرى خدم أبيك الملك لا يقصرون في صحبتك عن
خدمة ولا طاعة . على أن كل هذا لا يهمني إنما يهمني
أن أعلم رأيك في الشاب وكيف وجدته . وهل هو على
جانب من الفضل والعقل يتميز به عن اللدات ويسمو به
على الأتراب ؟

بثينة : أما هذا يا جدّة فنعم ، حسون فتى جم العلم غزير الأدب
عظيم الحظ من الفنون جميعا الى ما وهب له الله من

الشجاعة التي لا يضارعه فيها اليوم إلا أبي الملك وإلا شابُّ
كان زين الشباب ، طاح بالأمس شهيد الكرامة والواجب .

العبادية : أو أبداً تذكرين الظافر يا بثينة ، دعيه يا ابنتي في أعراس
نعيمه بين شباب الجنة ، خبّريني هل في شبان أمراء الديار
اليوم من هو الكيف لأميرة الأندلس وعروسه ؟

بثينة [في حياء] : هي الكيف موجوداً حاضراً يا جدّة . أهدأ وقتُ
الفكر في زواجي والاهتمام به وأنتِ ترين الحوادث يجتد
جدها والأمر تسوء مصايرها . مسكين أبي الملك أصبح
لا يدرى من أين يتلقى البلاء : المغاربة وساطانهم
ابن تاشفين يطلعون من البحر ، والأسبان وعاهلهم ألفونس
يزحفون من البر ، والملك بينهما كالصبيد المطارد من جانبيه ،
إن تلفت عن يمينه قُتل ، وإن تلفت عن شماله أُكل ،
والأندلس في هذه الأثناء كالأسد الواقع في الحفرة إن سكن
لم ينفعه ، وإن تحرك لم يرفعه ، وحدة ممزقة ، وكلمة متفرقة ،

وآمال بالعدو معلقة .

العبادية : إن بنات الملوك إذا بلغن الى مثل سنك يا بثينة كان الزواج

أزكى بسيرهن وأليق بجلالهن ، وأما ما ذكرت من إظلام

الجو وجهامة الحوادث ، فتلك حال اختلفت علينا بها

السنون حتى ألفتها وقد تصير الى الأردا الأسوء . وقد

يبعث الله برياح اللطيف فتعصم السفينة من الصخرة وتقيها

كارثة الاصطدام . بثينة ! بنيتي أنا الجدة ولدتك مرتين

إستريحى الى بسرك وبوحى الى بمكنونه فلن تجدى

أرحب بسرك ولا أرحم لك من هذا الصدر . خبرينى

يا بثينة أتعرفين بين أبناء سروات اشبيلية اليوم فتى يتوسم

فيه الخير ويرجى فى أمره الصلاح ، ويقول الناس عنه :

فلان كفاء لبنات الملوك ؟ بثينة . لقد مررت باسم

حسون مرا ولم تصفيه لى . فما شكله ... وما أوصافه ؟

بثينة : هو يا جدة شاب فى أواخر العقد الثالث من عمره ،

رشيق القامة فى طول ، أسمر اللون فاحم الشعر جعده ،

ساحر النظر، اذا تبسم جذب، واذا تكلم خلب .

العبادية [مبتسمة] : هو إذن فتى جميل يا بثينة ؟

بثينة : جدا وخفيف الظل فوق ذلك .

العبادية [بعد إطراق] : ولكن

[فأجفت الفتاة ولاحظت الجدة ذلك] .

العبادية : لا تغضبي يا بثينة فليس وراء « ولكن » شيء أقوله يحط

من شأن حسون وينزل به عن مرتبة الفتيان الأجداد .

بل كل ما هناك أن الناس يتحدثون اليوم في همسهم عن

نكبة نزلت بالتاجر أبي الحسن فذهبت بمعظم ماله .

بثينة : وما يعيبه من هذا يا جدة ؟ أليس أبو الحسن تاجرا ،

والتجارة جزر ومدد، وحرمان وجدد، ونحس وسعد، فكم من

تاجر بمنزلة أبي الحسن قد نكب فذهب عنه كل شيء

الا الخلق، ثم لم تمض مدة من الشهور أو الأعوام حتى

سمع الناس وتحدثوا أن التاجر فلانا المنكوب تغلب بالخلق

على زكيتته فعاد دولابُ تجارته كأميسٍ عظيمِ الحركةِ عميمِ
البركة ، ومثلُ أبي الحسن في خلقه وأمانته وشرفِ اسمه
في الأسواق لا يبعدُ أن يقومَ من هذه السقطة ووجلاه
في عافية .

بثينة [صاغية ثم قائلة] : ... أسمعيت يا جدّة .

العبادية : أجل ! سمعتُ تنفّسًا .

بثينة : ترى من الطارق ؟

[يدخل عليهما الملك] .

الملك : صفّعا يا أمّ وعذرا يا بثينة اذا كدرتُ عليكما الحلوة وقطعتُ

عليكما الحديثَ فوالله ما دفعني اليكما الساعة إلا همٌّ سارٌّ

وشاغل جليل .

العبادية : لا بأس عليك يا بنيّ ، وعافاك الله أيها الملك ، تفضلّ ،

اجلس .

بثينة : خذ مكانك بيئنا يا أبتِ واسترح الينا من همومك ، فهاهنا

الرحمةُ قد بسطتُ جناحيها : هاهنا الأم والبنت .

[الملك يضع جبينه على كتف بثينة باكية] .

بثينة [باكية] : ... هون عليك يا أبت وتجمل أيها الملك فقبلك لم تبك

الآساد ، ولا اشتكتِ الأطواد ، ولا ضاق البحرُ عن

الأصيرِ الشداد ، تحدثُ الينا يا أبت ولا تياس من

روح الله . وعليك بهذه الجدة الشفيقة والأم البرة فائتمنها

على سرك .

الملك : الملك الفونس منذ سقطت طليطلة وقضاها الله له أصبح

لا يعرف لي منزلة ولا يألوني تحقيراً وإهانة ويطلب المال

باستكلابٍ وشره والبلاد باستطالة ولؤم ؛ ومن عجيب

أمره أنه يغضب من جهة فيصخب ويتهدد ، ويلين من

أخرى فيلومني على الاستغاثة بيوسف بن تاشفين

واستنجاد جنوده ، ويدعي الطاغية أنه أوفى لي منه عهداً

وذمة وأصفي صداقة ومودة ، وأتني إن حالفت سلطان

المغرب كانت مخالفة الذئب للحمل ، وأن بربر المغرب اذا
دخلوا الأندلس طغوا في البلاد وهدموا بنيان الحضارة
فيها ، ومن نكد الدنيا أن تصدق فينا نبوءة هذا الناصح
الغاش فقد طمع ضيفنا ابن تاشفين في ممالكنا وسلطاننا
وتطلعت نفسه الى خيراتها وأرزاقنا ، واستنصرناه على
ألفونس فاذا نحن الآن نحشى منه بطش النصير ، واذا
أشبيلية قد تضمنت منى ومنه العجب ، النمر في قصر
هناك وراء الضفة يجتمع به أعدائي وأعداء الأندلس
من أبنائه الأندلسيين وصغار العقول من الفقهاء ومن يلتف
عليهم ، وهؤلاء يحسنون له البقاء في الأندلس واغتنام
الفرصة لضمه الى سلطنته ، وقيمون عنده الحجج على
فساد ملوك الطوائف ويجعلونني الهدف الأول ، وهنا
في هذا القصر أسد مقلّم الأظفار مغلوب على العرين وحيد
من الأنصار والأعوان .

الحاجب : شيخ يدعى ابن حيون بالباب يا مولاي .

بثينة : أدخله يا أبي وبالغ في إكرامه فقد سلف للرجل إحسان

إلينا لا ينبغي لنا أن ننساه أبد الدهر .

الملك : أدخله أيها الحاجب ... [يخرج الحاجب من الباب] خبريني

يا بثينة ما إحسان ابن حيون إلينا ؟

بثينة : لقد حدثني من لا أشك في صدق روايته أن هذا الرجل

صلى على أخي الظافر وبكاه وألقى عليه رداءه .

[يدخل ابن حيون فتسدل العبادية وبثينة كتاتهما على وجهها القناع] .

ابن حيون : السلام على الملك ورحمة الله .

الملك : وعليكم السلام أيها الولي الشفيق الحميم .

ابن حيون : لو أذن لي الملك في خلوة [وقد رأى السيدتين] .

الملك : لا تخش شيئاً يا ابن حيون ، فهذه العبادية ، أمي وهذه بثينة

بنتي ، فحديثك لن يساق إلا إليّ ، وسرك لن يجاوز أذني .

ابن حيون : أيها الملك . نحن اليوم أخوف ما كنا على هذه الأوطان ،

وفي مثل ما نحن فيه تجبُّ على الأمة النصيحةُ للملك ،
وقد انتهى الى أذني من بعض الفقهاء والمختلفين الى
ضيفك هذا يوسف بن تاشفين أنه أصبح يرى نفسه أحقَّ
بهذا الملك منك وقد رأيتُ رأياً فان أذن الملك رفعته اليه .

الملك : وماذا رأيتَ يا أديب الأندلس ؟

ابن حيون : أعلم أيها الملك أن هذا الضيف الذي نصرته ونصرك
وحالفتَه وحالفك وقاتلت معه قتالاً يبق حديث الدهر
هو أهل لأن يغدركَ وفي غدرك ضياعُ الأندلس جميعاً
وقوعه في قبضته البربرية الغاشمة ، وقديماً كان هذا
سلوكه مع غير واحدٍ من أمراء المغرب فتزع منهم ملكهم
وسلطانهم وشردهم في الصحارى والقفار ، فلا تفوتك
يا مولاي خُطة الحزم والعزم في أمر هذا النمرذى العمامة
والمسبحة .

الملك : وماذا تنصح لي أن أصنع ؟

ابن حيون : ألا توطئ الأرقم سريرك ، وأن تقطع السيف قبل أن
يقطعك ، وأن تقبض من فورك على ضيفك هذا فتسجنه
ولا تطلقه حتى يأمر جنوده بمغادرة الأندلس بره وبحره ،
ثم يحرس أسطولك البحر من كل سفينة مغربية تجرى
فيه ، فإذا تم لك ذلك أخذت على ابن تاشفين الأقسام
ألا يعود إلى الأندلس بعدها أبدا . وخذ منه الرهائن
فان نفس الرجل أعز عليه من ملك الأندلس والمغرب
مجتمعين ، وله أعداء ببلاده يخشى تحركهم وانتقاضهم
ويخاف أن ينتهزوا الفرصة للإستيلاء على ملكه ...

العبادية : أيها المتكلم المحسن والناصح الصادق لم يخف على مكان
مشورتك ولكنها خطة أولها لؤم وآخرها شؤم ، فان
الملك أكرم وأعظم من أن يغدر ضيفه أو يخون جاره
أو أن يحفر الحفرة لمن أقال عثرته .

الملك [لابن حيون وقد رآه يضطرب] : لا ترع أيها الرجل الصادق فقد سخا

حين نبئنا بوصولك نحوض في هذا الحديث وكان رأي

كرأيك وأما ابنتي بثينة فلم تكن أبدت رأيها بعد .

بثينة : مولاي . كلا الصوتين نبرة حق . ونصيحة صديق ،

إلا أنني أميل إلى الأخذ برأي الأديب ابن حيون .

الملك : بورك فيك يا عقيلة الأندلس . مثل هذا السم في الرأي

وهذا الحرص على حقيقة الملك لا يستغربان من بنات

الملوك المنشآت بين أعباء الدولة ومهام السلطان .

العبادية [معرضة] : ونحن بنات الشعب ألا يقام لراينا وزن يامولاي .

الملك [مبتسما] : أنتن تلدن الأجسام الصحيحة والقلوب الجريئة

وتحسن تدبير البيوت ولكن لا تصلحن لسياسة الممالك .

الملك [لابن حيون] : لو تيقنت يا بن حيون أن جمهور شبان الأندلس

يشاطرونك أنت وبثينة الرأي لما تأخرت ساعة عن العمل

بما تشيران به علي .

المسك : كيف قضيت ليالتك عند ضيفنا أمير المسلمين يوسف
ابن تاشفين ؟

مقلاص : كانت ليالي يا مولاي ونحن ، كما تعلم ، في آذار وفي إبان
القمر طويلة مظلمة باردة لم أضحك فيها السلطان مرة
ولكن بكيت مراراً ولم أجلب له السرور ولكن جلبت
لنفسى الغم .

الملك [متعجباً] : ما هذا الخبر يا مقلاص ؟

مقلاص : وجدت يا مولاي بحضرة أمير المسلمين لا يفهم كلام
العرب وعند رأسه ترجمان من كتابه يفسر له كل ما نقوله
معشر العرب في مجلسه ويشرح لكل منا ما يشرفه به
السلطان من الخطاب .

المسك : ثم ما ذا ؟

مقلاص : رأيت هناك يا مولاي ملوك الأندلس وقوفاً بباب
السلطان متنافسين في إذنه .

الملك [ملتفتا إلى زائره قائلا] : أسمعْتَ يا بن حيون ... ؟ أعرَفْتَ ...

ثم ما ذا يا مقلاص ؟

مقلاص : ورأيتُ ثم فقهاء الأندلس بعائهم المكبرة وجبهم

الموسعة يتسحون بالأعتاب .

الملك : أسمعْتَ يا بن حيون ! أعرَفْتَ ؟

الملك : ثم ما ذا يا مقلاص ؟ قل لنا كيف وجدت السلطان .

مقلاص : بو عليه طيسان وبومة في يدها صولجان .

الملك : وما ذا قال لك حين وقعت عينه عليك ؟

مقلاص : أدخلتُ إليه يا مولاي فحقتني من رأسي لقدمي ثم قال لي :

أنت الرجل الذي عمَّله إضحاكُ الملك بن عباد وتلهية

أسرته ؟

الملك : فما كان جوابك ؟

مقلاص : قلتُ له أجل أيها السلطان أنا نديمُ الملكِ وسميره .

الملك : فماذا قال لك ؟

مقلاص : قال لي إذا فأضحكنا نحن أيضا . عجل أضحكنا .

الملك : فماذا صنعت ؟

مقلاص : دخلني نجل شديد ووقفت ساعة أنظر في ثيابي ولم يفتح الله عليّ بشيءٍ يضحك منه ضيفك الكريم . فهممت بأن أقبض على السلطان بكنتا يدي وأقذف به من النافذة .

الملك : وماذا منعك يا مقلاص ؟

مقلاص : سيفه المعروض على حجره والزبانية القائمون عند رأسه وبيجانيه كأنهم العفاريت ، إلا أن السلطان لحظ حرج موقفي فأشار بأخراجه فحضر من رجاله من صرفني في وقاحة وإذلالٍ فخرجت وأنا لا أدري فيم طلبني الرجل . وأحمد الله على أن لم يجعلني في خدمة سلطانٍ مثله له وجه كوجه الأسد لا يعرف التيسم ولا البشاشة .

[مقلاص يريد أن ينقذ الملك من تأثره] .

مقلاص : لقد وجدتُ ضالتي يا مولاي .

الملك : وما ضالتك التي وجدت؟ وهل عدت تهدي يا مقلاص؟

مقلاص : لا يا مولاي ... ألا تذكر أنني كنتُ من الإعجاب بجمال

الأميرة بثينة وكما لها وسمو منزلتها بين عقائل الشرق والغرب

بحيث لا أعتقد أن بين فتيان الدنيا من هو أهل لأن

ينخطبها إليك .

الملك [مبتسماً] : والآن هل وجدتته يا مقلاص ... ومن ترى يكون؟

مقلاص : فتي جرى جميل رأيته يوم الزلّاقة يحمي ظهورك هو وحريرُ

وابن لاطون فظل سحابة نهاره معدلاً بالسيف دونك

حامياً لحوذتك حتى لقي البطلان حرير و ابن لاطون

حتفياً وحمل هو إلى داره مُثخناً بالجراح .

الملك : ومن الفتى يا مقلاص ؟

مقلاص : هو يا مولاي أجملُ فتيان الأندلس وأشجعُهم وهو الآن

طريحُ الفراش ما يزال يشكو من جراحه .

الملك : ومن يكون ... ؟ وما اسمه ؟

مقلاص : هو حسون ابن التاجر أبي الحسن .

ابن حيون : لقد صدق فتاك يا مولاي فاني كنتُ عند حسون الليلةَ

البارحةَ أعوده وقد أفاق من جراحه وقصَّ عليَّ حديثَ

بلائه يوم الزلافة حين اشتدَّ القتالُ بينك وبين الإفرنج

فأخبرني أنه رأى يومئذٍ جوادك وقد ضعف وخار من

شدة الجراح فقدم لك الصاعقة : أمير الجياد، فركبتهُ

وكان تحت الباذ بن الأشهب إصَّ الأندلس نحرَّ عنه قتيلا .

الملك [مندهشا] : أو كان الباذ بن الأشهب بجاني يقاتلُ معي أعداءَ

البلاد ؟

ابن حيون : نعم يا مولاي ، ويقول حسون إنه أبلى يومئذٍ بلاءً عظيما .

الملك : يا لله . أياكون اللصوصُ أوفى للأندلس من أمرائه

وفقهايه ، وأبذل منهم للأرواح دونَ لوائه ... وأين حسون

الآن ؟

ابن حيون: هو كما ذكرت لمولاي ما يزال طريح الفراش ولكن لا خطر
على حياته .

الملك: الآن تذهب أنت ومقلاص فتنوبان عنى في عيادته والسؤال
عن أمره وإبلاغه تحيتى وشكرى وما أُعدُّ له من جليل
المكافأة .

بثينة: وأنا أيضا أبلغ حسونا تحيتى وشكرى يا سيدى ابن حيون
وأرجو أن يعلم أن أخت الظافر لم تنسه ساعة وأنها قد
جمعت له هذه الأزهار بيدها فأحملها إليه وقل له لو كنت
الملك لبعثت له بالغار فى الأزهار وبالصوب لجان مع الريحان .

[وفى هذه الأثناء يدخل جوهر]

جوهري: مولاي . لقد وقع ما كنا نحاذر وحل بأشبهلية البلاء .

المعتمد: البلاء! تريد أن الصديق قد انقلب وأن الحليف قد عاد
حربا . هذا ما خفت أن يكون وقد كان .

[يدخل لؤلؤ]

لسؤلؤ : أغث أيها الملك المدينة أدركها فقد خلفتها وجنود
السلطان يتدفعون فيها كالسيل بعد ما اشتد ضغطهم على
باب الفرج وأقاموا ساعة يدفعونه حتى ناءت به الكثرة
فانفتح فنفذوا منه الى كل مكان فأخرج يا مولاي فقاتل
حتى تستنقذ الوطن أو تموت دونه وإلا فالنجااء النجااء !!
الملك [مغضبا] : تدعوني يا شاب للفرار . هيهات هيهات . الأسد
لا يهرب ولا يخاف الموت . [ملفتنا الى جوهر] خبرني
يا جوهر أين كان فتیان أشبيلية وأين هم الآن .
جـوهر : قبع الفتیان في البيوت يا مولاي إلا مائة أو مادون المائة
شهدوا معك يوم الزلافة وتعلموا منك الكر والإقدام واليوم
قد لبسوا السلاح وخرجوا يلاقون الموت وهم بانتظارك
ليجعلوك اللواء الذي تسيل نفوسهم عليه .
الملك : يا بشرای مائة شاب وطنوا النفس على الموت ؛ أما والله
لو صدقت يا جوهر لكان لي من مائة قلب مجتمعة

مؤتلفة متواصية بالحق وبالموتِ قُوَّةُ أرمى بها في العبابِ
 فيمحي وأقذفُ بها على الجبال فتزول . البدار البدار
 يا جوهر إمض لوقتِك فضع بيدك السرج على الصاعقة
 والقني به على الباب .

جوهري [بصوت عال] : أبشري أشبيلية هذا الليث قد تحرك لنصرة

العرين .

المالك : في ذمة الله وفي حفظه يابنات المعتمد .

بشينة : في درع من وقاية الله يا أبي فإني أراك أخذت سيفك
 ونسيت درعك .

[المعتمد وهو منطلق والسيف مسلول في يده ولا درع عليه]

المالك : إن يساب القوم العدا ملكي وتسلمني الجموع
 فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
 قد رمت يوم نزلهم الا تحصنتني الدروع

وبرزتُ لَيْسَ سِوَى الْقَمِيهِ
وَبَرَزْتُ لَيْسَ سِوَى الْقَمِيهِ
مَا سَرْتُ قَطُّ إِلَى الْقَتَا
لِي وَكَانَ مِنْ أَمَلِي الرَّجُوعُ
شَيْمِ الْأَلَى أَنَا مِنْهُمْ
وَالْأَصْلُ تُتْبِعُهُ الْفُرُوعُ
يَصِ عَلَى الْحَشَا شَيْءٌ دَفُوعُ

[سننار]

الفصل الخامس

المنظر الاول

« في دار أبي الحسن ، في غرفة حسون ، حسون »

« واقد على سرير مريضه مريضا وأبوه أبو الحسن داخل عليه »

أبو الحسن : قم يا حسون ، إنهض . إن العناية بلغتك منك . وشفت
بعودك للحياة أباك .

[ينتفض حسون من رقدته جالسا]

أوشكُ يا بني أن أهتدي لموضع بثينة فهل تساعدني وهل
تخف معي لعلنا نجد الكثر الضائع . ونظفر بالأمنية
المنشودة .

حسنون : ماذا حدث يا أبي ؟ ماذا رأيت أو سمعت حتى امتلأت
تفاؤلا واستبشارا ؟

أبو الحسن : أتذكر يا بني خاتم الزمرد الذي كانت تطوف علينا به
في سوق الجواهر سيدة كهلة من وصائف القصر وهي
تبحث عن توأم للفص وتلتمسسه فلا تجده ؟

حسنون : نعم يا أبي ! وأذكر أنها كانت تنسب الخاتم للأميرة بثينة
وتصف رغبة الأميرة في الحصول على فص يكون في حجمه
وصفاء لونه وسلامته من العيب ليكون لها من الجواهرتين
قرط عزيز المثل .

أبو الحسن : فاعلم إذن يا بني أنني كنت منذ حين في سوق الجواهر
فما راعني إلا رجل قوي من قواد المغاربة قد جعل
يطوف على التجار يعرض عليهم حلية فأخذتها عيني فإذا
هي خاتم الأميرة بفصه . فتريئت إلى أن كفت المساومون
وكان آخر ثمن يُبدل في الخاتم ثلاث مائة دينار وكان

التجار يقولون للرجل : لوجئتنا بصنوهذا الحجر لنقدناك
 فيهما الألف أوزدنا . وهناك أوماتُ الى الرجل أن
 يتبعني فتبعني . فانتبهتُ به ناحية وقلت له : أنا آخذ
 الخاتم بالثلاث مئة وأزيدك عليها مئة إن أنت صدقتني
 الخبر عن مصدره وكيف وصل اليك ومن أى المعادن
 التقطته ؟ فانبسط الرجل وتهلل وقال : هذه الحلية
 ياسيدى بخارية من قصر ابن عباد وقعت لى سبية يوم
 هجومنا على اشبيلية ، فنقلتها إلى دارى فلم أجد عليها غير
 هذه الحلية وكانت فى يدها فأخذتها ، وأما البخارية فلم
 أجدها مغنا بل مغرماً . فانها سقيمة مستسامة للأحزان
 طعامها قليل ، ونومها غرار ، ودمعها لا يرقأ حزنا على
 سادتها . ونحن لانحب من النساء إلا القويات
 الصريحيات الأبدان . ولا أكتمك ياسيدى أنى بأمر
 البخارية تعب وبودى لو تخلصت منها . فقلت له : خذ

الآن الأربع مئة ديناراً مباركاً لك فيها . وأعلم أنني
 طبيبٌ مولعٌ بالمشاهدة والتجريب ، كثيرُ الاعتناء بالمريض
 البائس فلو مضيتُ بي إلى بيتك لعلني أنظرُ الجارية ،
 فأعرفُ علتها وأصفُ لها دواءها أو أخففُ آلامها .
 فقمنا فمضينا حتى انتهينا إلى داره . وهناك أدخلني على
 الجارية المريضة فدنوتُ منها . وقلتُ لها : عوفيت
 يا جارية ولا خوفَ عليك إن شاء الله تعالى .

حسون : والنونة يا أبت ؟

أبو الحسن : رأيتها يا حسون فوجدتها فوق ما كنت تصفُ لي لطفاً
 وجمالاً . والتفتُ إلى القائد البربري فقلتُ له : أو تعطيني
 هذه الصبية أيضاً وأنا أتمها لك خمس مائة . فتهلل
 الرجل وارتاح وقال : خذها يا سيدي وأرحني منها ودأوها
 أنت فعساها تصحُّ على يدك فنقدته المائة الخامسة وحملت
 الصبية فوق ذراعي وخرجتُ بها فركبتُ جوادى وأركبتها

خافى وانطلقتُ حتى بلغتُ الدار .

حسون [صائحا] : وأين هي يا أبتِ ؟ أتراها هي بنوتتها . ربي آجعلها هي ... وأين تركتها يا أبي ؟ وفي أى موضعٍ من الدارِ ؟

[يفتح باب غرفة مجاورة فاذا بثينة من وراء

الباب . فيندفع اليها حسون صائحا ...] .

حسون : بثينة ! حبيبتي ! أميرتى .

بثينة : حسون ! أنحى ! صديقي !

أبو الحسن [قاطعا عليهما لذة اللقاء والحديث] : الآن وقد جمعتك يا أميرة بصديقتك وخادمك حسون ، أستاذنُ في الخروج الى بعض شأني ساعةً .

بثينة : لا يا عمّ ، بل إبقِ إليّ ، إن وجودك معنا يزيد الموقف بهجة وطيباً .

أبو الحسن : إن أذنتِ يا أميرة فان احتجابي عنكما ان يطول .

حسون : بل إبقِ معنا يا أبي .

أبو الحسن : سأعود يا بني ، سأرجع [ويخرج أبو الحسن] .

حسون [الى بثينة] : ماذا أقول يا أميرتي ؟ وكيف القول في هذه

الساعة التي هي العمر ؟

بثينة : أنظر حسون كيف جعل الله هذا اللقاء الذي لم يكن

في الحسبان عوضاً لما فاتنا من نعيم الحياة ومتاعها ، حتى

كدت أنسى ذلك الملك المنزوع والسلطان الذاهب ، وأسألوا

القصور وضجتها ، والدولة وأعراسها .

حسون : وأنا أيضا يا بثينة غفرت هفوات الدهر لهذه الساعة

المحسنة الطيبة وإن لم أخل ولن أخلو ما عشت من تفجع

للوطن العزيز وتوجع لرزئه الجليل .

بثينة [متهددة ، مكتئبة بعد انبساط] : آه من الدهر ماذا صنع . لطف الله

بيك يا أشبيلية فيما حل عليك من قضائيه ، وجعل وطأة

المغاربة خفيفة عليك وعلى جاريتك من حواضر الأندلس .

حسون [مطرقة متهددا] : دهر بنييه يا بثينة قآب ، ودنيا ترتجل العجائب ،

وملك في السماء يفعلُ بعباده على الأرض ما يشاء، وليكن ...
 بثينة حبيبتي أميرتي : أحقُّ أننا النقينا في يقظة أم نحن
 خيالان في رؤيا من الأحلام ؟ أتذكرين يا بثينة يوم
 السوق ؟ أتذكرين قرطبة ؟ أتذكرين رسالة الضمّي
 لله ما كان أحلاك يومئذٍ وراء اللثام .

بثينة : وأنت يا حسون لله ما كان أجملك وأكملك وكأنك يومئذٍ
 ملك . كنت تتنقل في السوق فتخرج من مكتبة وتدخل
 غيرها وتدعُ كتابا وتأخذُ كتاباً والكتبُ حلية الشباب النابه
 وجمال الفتوة النايغة .

حسون : أتذكرين كل ذلك يا بثينة ؟

بثينة : أجل كل ما كان من حركاتك وسكّاتك يومئذٍ ومن عباراتك
 وإشاراتك ما يزالُ مرثيماً في ذهني لم تمحه الشهور ولا
 أحسبُ الموت يحوه .

حسون [يمد يده الى ذقنها ويقول] : بحياتي نونه كالدرة المسكونة .

بثينة [في شيء من الغضب] : نَح يدك يا بن أبي الحسن لا تمدّها الى ما لم
تملك بعد .

حسون [في انكسار واستحياء] : أغفريها للحب وللشوق يا أميرة . سُئِلَتْ
يدي إن كنتُ أضمرتُ سوءاً أو هممتُ بريبة .
[يدخل أبو الحسن] .

حسون : أبي ! أبي لم تُبْطئُ يا أبي .

أبو الحسن : كنتُ مشغولاً يا بني بتهيئة طعام الأميرة .

بثينة : جزاك الله خيراً يا عم ومدد لنا عمرك .

أبو الحسن [يأخذ مجلسه ويقول] : الحمد لله يا ولدي على هذا التلاقي الذي

هو من توفيق الأقدار ، فالיום جمعكما هذا البيت على أثر

الكارثة وفي أعقاب النكبة كما يجمع الشاطئ الغريقين

سالمين بالرمق من انكسار الفلك ومن ثورة الريح وطغيان

الماء ، لقد تعارفتما بالأمس فنشأت بينكما الألفة وأنست

الروح بالروح ، وانعطف القلب على القلب وقديماً يا أميرة

صاهرت الملوكة الرعية وأبوك ، لطف الله به وبنا جميعا
 فيما حل علينا من قضائه وقدره ، أسمح من سن هذه السنة ،
 فرفع على عرش اشبيلية امرأة من رعاياه ، هي الرميكية
 خيرة المايكات ، وأم العقائل من البنين والبنات .

بشيئة : أراك ياعم قد بالغت في مؤاساتي حتى أنكرت يد الدهر
 وما نالت منا ، وإلا فأين أبي مني اليوم ؟ وأين من أبي
 ملكه ؟ وهل نحن اليوم إلا سوقة نتنصف .

أبو الحسن : هوئي عليك يا أميرة إن أبك لم يخلعه قومه ، ولكن
 خلعه المغيرون ، فهو في نفوسنا معشر الأشبيليين حاضر
 الجلالة مائل المهابة مرتسم الكرامة ، يومه كأمسه وغده
 كيومه وإن اختلف به اليوم والغد وتصرفت به الأيام ،
 وأنت أيتها الأميرة فما زلت بنت الملك المعتمد بن عباد ،
 فهل تنزلين الى القبول بابني هذا حسون زوجا .

حسون : وخادما أمينا .

بشيئة : هذا كثير في المجاملة والمواساة ياعم ، إن حسونا كفاء
ويشهد الله أني أحبه وأجله ، وكأني بأبي في غيابة سجنه
ينظر إليه كما أنظره . ويشعر نحوه بمثل ما أشعر . ولكني ،
كما علمت ، مفعولة : بأب منكوب ، ملك معزول ،
أخذ فغل ، ثم سربل الذل ، وبأيم ثكلي وإخوة قتلي ،
وأخوات أميرات يتعذبن من الخلع ويتكسبن من غزل
أيديهن .

حسون : قد قأت حقا يا أميرة وأنا لا أتخيل الجميع هناك إلا
مشغولين بك فوق منفاهم . يفتشون عن مكانك بعين
حيرها الدمع ، ويدقصرها العجز ، وقدم أعجزها القيد .

بشيئة : إذا فانت ترى أنه ليس من الحق ولا من البر، أن أوجد
ولا يعلمون أني وجدت ، وأن أتزوج ولا يعلمون كيف
ويمن تزوجت . وماذا يقولون إذا هم علموا أني اتخذت
من ماتمهم عرسا ؟

ابن حيون [يدخل ويقول بعد أن رأى بثينة ، مندهشا] : سيدتي بثينة هنا ؟

الأميرة بخير ؟ ما أعظم منتك يارب .

[ويحاول تقبيل يد الأميرة فتمنعها منه] .

بثينة : لا تفعل يا عم . أهلا بك يا ابن حيون . وما أعظم

سروري بإلقاءك .

أبو الحسن : أنظر ابن حيون . نعمة الله علينا بهذا الكنز الغالي الثمين .

حسون : أنظر ابن حيون كيف رد الله على راحتي وروحي ، وأعاد لي

الحياة والآمال .

ابن حيون : الحمد لله الذي جعلك في حفظه وفي ذمته ، والذي ردك

إلينا سالمة ياسيدتي ، والذي هو قادر على أن يجمعك بأهلك

كأمس على جاه الأمور وفي ظل شاهقة القصور .

بثينة : لقد رأينا يا عم كيف تنتقل الأمور ، وعرفنا كيف تبدل

أهلها القصور ، وأصبحت لا أطمع من دهرى إلا بالعيش

في ظل الأمن والنحول ، وبين قلب يحنو ، ونفيس تعطف .

ابن حيون : طيبي إذن ياسيدتي نفوسا ، إن الذي تشتين قد اجتمع لك ، فالأمن والسكون لا تعدمينهما في جناح من هذه الدار ، أو في جنة بعيدة عن الناس من جنات هذا الإقليم وإني أشهد أن هذا الفتى يحبك وأنت ملء قلبه وملء نفسه ، فأقرني ياسيدتي حياتك بحياته تجدي حقيقة السعادة في ظل الحب المشترك الصحيح .

حسون : كان هذا حديثنا ياعم قبل حضورك ولكن لم نكن فرغنا منه بعد . وقد رأيت الأميرة برا بوالديها وقضاء لحقهما أن يكون زواجنا بعين أبيها وسمعه ، وبقبول أمها ورضاها . وكل زواج رضيه الأبوان وارتاحا إليه سبقت فيه البركة وطافت به الرحمة .

ابن حيون : لقد رأيت صوابا . وانفقتم على واجب كان لا بد من قضائه . ولا أظن هذا المقترح لقي منك اعتراضا يا أبا الحسن .

أبو الحسن : معاذَ الله يا بنَ حيون ، ولكن ألا ترى معي أن حسونا
والأميرة محتاجان إلى الراحةِ واستردادِ العافية .

ابن حيون : أما هذا فنعم ، ولم لا يقضى حسونُ والأميرةُ هذا الأسبوعَ
في هذه الدارِ حتى تثوبَ إليهما القوةُ والعافية .

حسون [مقاطعا] : أتأذنُ لي يا أبي إن رأيتَ غيرَ رأيك ورأيي ابنِ حيون ؟
أبو الحسن : تكلم يا بني فانتَ حر .

ابن حيون : الكلامُ حر في الأندلس يا حسونُ فتكلم .

حسون : أرى يا أبي أن تُسافرَ من ليلتنا بل من ساعتنا إلى أغماتِ
منفى الملك .

أبو الحسن : تُسافرُ ؟ تُسافرُ الساعة ؟ وأنتَ والأميرةُ على هذه الحالِ
من الضعيفِ والسقامِ ؟

حسون : أبي إني ذكرتُ الوالدين المتكويين نخيل إلى أنهما على
جمرٍ لا يهدأ من اللوعةِ لاحتجابِ الأميرةِ والشكِ المعدَّبِ
في مصيرها ، وليس ما ذكرتُما أنتَ وابنُ حيون من ضعفِي

وضَعَفَ الأَمِيرَةَ وَأَثَرَ السَّقَمِ وَالْهَمِّ فِينَا إِلَّا حَالًا لَا يَلْبِثُ
الشَّبَابُ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ ، فَالْمُرُوءَةُ تَأْمُرُنَا بِجَمِيعِهَا إِلَّا تَوَخَّرَ
الرَّحِيلَ سَاعَةً إِذْ لَا مَعْنَى الْإِسْعَافِ إِذَا هُوَ لَمْ يَعَجَّلْ وَلَمْ
يَأْتِ فِي أَوَانِهِ .

ابن حيون : هو ذاك .

أبو الحسن : نعم الرأي .

الأميرة : ليكن كما أشار حسون .

حسون : إذا فهم أبي ، هلم ابن حيون ، هلمى يا أميرة . الساعة
نُسَافِرُ فَنَقِضِي الْوَأَجِبَ .

الأميرة : ويقضى الله ما يشاء .

[يدخل الغلمان الخدم صائحين]

الغلمان : سيدي أبا الحسن ، سيدي حسون ، سيدي ابن حيون
خُذُوا حِذْرَكُمْ أَدْرِكُوا الدَّارَ .

حسون : ما يُرْجِعُكُمْ أَيُّهَا الْغُلَمَانُ . وَمَاذَا حَوْلَ الدَّارِ . إِنِّي أَسْمَعُ

ضجة . أما تسمع يا بن حيون أما تسمع ضجة يا أبي ؟

بينية : حول الدار ضجة .

خادم من الغلمان : أولئك جنود المغاربة يا سيدي .

الثلاثة [بصوت واحد] : جنود المغاربة حول الدار ! ؟

الخادم : أجل أتوا يسألوننا عن بنت الملك هل رأيناها وهل

أويناها وهم يقولون إنها دخلت الدار منذ ساعة وإنما

طريدة الأمير سيري بن أبي بكر قائد جيش الفتح .

حسون مفضبا : بل قل جيش الفضح يا غلام ، فقد باء الغادرون

بفضيحة الأبد .

بينية : الآن فهمت يا حسون ، الآن أدركت يا عم أن سيري

ابن أبي بكر كان قد خطبني الى أبي ، وكان رسوله يومئذ

القاضي ابن أدهم ، فلا أبي أجاب ، ولا أنا قبلت ، ولعله

تذكرني اليوم فهو يريد أن يأخذني عنوة .

حسون : لا والله يا بنت الملك لا تسقط من رأسك شعرة وأنا

حتى ساعدى معى وسيبقى بيدي مسلول .

[وبعد إطراق يستأنف ويقول]

حسون : لا بأس عليك يا أميرة ، ولا علينا يا أبى من طلعة البربر
ولا من اجتماعهم بنا فى هذه الحجرة أو غيرها من الدار
ولا خوف علينا من قشهم ونبشهم .

التاجر : وكيف يا حسون ؟ وماذا اعترمت أن تصنع لتدفع عنا
هذا البلاء ؟

حسون [بعد فكرة قصيرة] : إسمع يا أبى ! فى هذه الغرفة صندوق مملوء
من ثياب المغاربة وأسلحتهم فاتبعونى . أدخلوا من
فوركم فاخلعوا ثيابكم هذه وخذوا من الصندوق ما شئتم
من ثياب المغاربة وتزيوا بزى القوم ثم نخرج فنختلط
بهم أو ندعهم وسبيلهم ونأخذ سبيلا غيره .

ابن حيون : هو لاشك سبيل الفرار .

حسون [مبتسما] : هو ذاك يابن حيون : السرعة ، السرعة [ثم ملتفتا الى

الأميرة] أدخلى يا أميرة، أسيرعى، أسيرعى، ليضمينَّ الوقتُ
فان الجنودَ فى طلبنا .

[يدخل الأربعة الحجرة ثم يخرجون فى الزى

المغربى و يكون الجنود قد دخلوا وهم يقولون]

الجنود [داخل المنزل لبعضهم] : فتشوا، انبشوا .

الأربعة [خارجين قائلين] : فتشوا، انبشوا [ويكررون ذلك ثم ينسلون من المكان]

المنظر الثاني

« تحت أسوار السجن في أغمات حيث ترى بثينة وحسون »

« وأبو الحسن وابن حيون على مقربة من حارس السجن »

ابن حيون : ها نحن أولاءٍ شارفنا أغمات ، وهذه أيها الرفاق هي القلعة التي شاءت الأقدار أن يسجن فيها الملك العظيم .

حسون : يا لعجائب القدر ! قرية ظلت القرون الطوال مجهولة مغمورة أصبحت اليوم تسافر إليها الظنون من كل مكان وتشتغل ممالك العرب بها وبتزييلها العظيم وتشريف الأسماع لمطالع قوافيه وينتظر الرواة ما يقول فيه الشعراء من كلمات التوجع ونفثات الحنين .

بثينة [بعد إطراق واستعبار] : يا القسوة القدر ! أهذا قفص الأسد

يابن حيون ؟ أههنا منفي الملائك من عقائل بني عبّاد؟

تباً لك يابن تاشفين . ما كان أبخل جاهك على الكرام ،

وما كان أكثر في القيود على الأحرار .

ابن حيون : صه أيتها الأميرة فهذا السجن ينظرُ الينا وقد يدخلُ الريبة في نفسه أن يسمع منك مثل هذا الكلام .

حسنون : كفكفي الدمع يا بثينة وأقلّي الجزع ولا تنسى أن وراء هذه الجدران جروحا من الدهر لم يبق لها بلسم سواك .
فكوني المفاجأة الشافية وأطعني عليها بابتسامك الحلو
طلوع العافية .

السجان : من الرجال ؟ ما تبتغون ؟ متى كان حرم السجن موضع
وقوف وهمس ؟

حسنون : نحن أيها السجان طائفة من آل الملك السجين وحاشيته ،
قد هنّنا الشوق إلى زيارته والسؤال عن أمره ، فادخل
فاستأذن لنا عليه .

السجان : أنسيت أيها الفتى أن هذه القلعة هي من السجون التي
يعيرها السلطان اهتمامه فلا يدخلها داخل إلا بأذنه ولا يخرج

منها خارج إلا بإذنه ، فهل بأيديكم جوازٌ يبيح لكم زيارة
السجين ؟

ابن حيون : أنت تعلم يا أنحى أن مولانا السلطان يعطف على أسيره
الكريم .

السجان [متهكاً] : كل العطف ياسيدي .

ابن حيون : وأنت تعلم أن الملك المعتمد قد رخص له من أول يوم
في استصحاب من يشاء من خواصه وذوى قربه .

السجان : أعلم هذا أيها السيد .

ابن حيون : فكر إذن في الأمر قليلاً . فليس يضرك أن تدخلنا إلى
الملك وتتركنا عنده ساعة لعلنا نشفى برؤيته وحدثه الشوق
والصباية [ويلقى للحارس صرة ويقول] ومع ذلك فإليك هذه
الصرة خذها وبلغنا الأرب .

السجان [وهو يضع الصرة في كفه] : ما هذا أيها السيد ؟

ابن حيون : هذا ، قد لمستَه بيدك ، هذا قد سمعتَ رنينه بأذنك ، هذا

يا أنحى هو الذهب مفتاح الأبواب كلها إلا باب الجنة .

الحارس : هذا كثير يا سيدى .

ابن حيون : بل هو قليل يا أنحى . ولك مثله عند خروجنا من

حضرة الملك .

السجان : لقد سألتونى أمراً صعباً أيها السيد ... ومع ذلك ... فما

فى دخولكم من بأس . تفضلوا يا سادة أدخلوا .

المنظر الثالث

« في سجن أغمات حيث يرى ابن عباد بين أمه وزوجه وسائر أولاده »
 « وحاشيته ، وقد شاعت آية البؤس والتعاسة في وجوه الجميع ، اليوم »
 « يوم عيد وقد جاس ابن عباد يتلقى تحية العيد وكلهم صامت خاشع ... »

ابن عباد [مناجيا نفسه] :

فما مضى كنت بالأعياد مسرورا
 فساءك العيد في "أغمات" ما سورا
 ترى بنساتك في الأطهار جائعة
 يغرزن للناس ، ما يملكن قطميرا
 برزن نحوك للتسليم خاشعة
 أبصارهن حسيرات مكاسيرا
 يطان في الطين والأقدام حافية
 كأنها لم تطأ مسكا وكافورا

من عاش بعدك في ملك يسر به

فانما عاش بالأحلام مغرورا

الرميكية [للك] : الأميراتُ بين يديك أيها الملك أتين يهنئتك بالعيد .

الملك : يا مرحبا بهن ، ولا مرحبا بالعيد ولا أهلا به ...

عيد ! بأية حالٍ عدت يا عيد ؟ إذهب فأنت على

السجين حرام .

الملك [لنفسه] : لكن لا يابن عباد ! بعض هذا الجزع ، وتجلد رحمة بهذه

الحمام الموثقة ورفقا بهذه الملائكة المسجونة .

الملك [الى بناته] : العيد يا أخوات بثينة يوم يجمعنا باختيكن .

إحدى الأميرات : والعيد أيضا أيها الملك يوم يرد الله عليك ملكك

فتدخل أشبيلية عليك التاج مؤتلقا .

أميرة أخرى : بل العيد يا أبي يوم تدخل الأندلس فتتنقل في ربوعه

وممالكه تنقل الشمس من دار إلى دار .

الملك : تقبل الله منكن يا عباديات ورحمني .

لإحدى الأميرات : هون عليك يا أبا فلم يدم في النعيم والبؤس قوم .
 الملك : لقد هون الصبر الحوادث عندي يا بنتاه إلا حادثه أصبح
 القلب جريحا لا يقوى على حملها .

الأميرة : وما تلك يا أبتى .

الملك : أختك بثينة واحتجابها الذي طال . وانقطاع الأخبار
 عن مصيرها .

الرميكية : لا تياس من رحمة الله أيها الملك وانتظر فرجا يأتي به من
 فضله وكرمه فهذا قلبي يحدثني ، وقلها كذبت قلوب
 الأمهات ، أن بثينة قد وجدت وأنها بخير وأمان .

الملك [بايضا متضرعا] : اللهم اسمع من أمتك الرميكية وتقبل منها
 وأدخل علينا السرور ولو ساعة فإن عهدنا به عهد طويل .
 [الأميرات ينصتن]

الرميكية : ضجة ؟

أميرة : حركة !

أخرى : نقل أقدام !

المالك : أنظري يارميكية من الداخلون ؟ فان عيني أصبحت
لا تحقق الأشباح .

الرميكية : سلم الله عينيك يا مولاي وأقرهما بقاء بثينة .

[وفي هذه الأثناء يثب مقلاص الى الباب ويرجع مع]

[القادمين يقبل ثوب الأميرة بحرارة قائلا ...]

مقلاص : سيدتي بثينة ! أميرتي ، يا طربا ، يا فرحا .

المالك : رب ما أرحمك ماذا أرى ؟ ماذا أسمع ؟ ما هذا الطيب

الذكي ؟ إني أجد ريح بثينة .

الرميكية : بشراك يا قلب هذه فلذتك ردت إليك [وملفتة الى الملك]

سيدي ملكي أنظر كيف استجاب الله لنا ؛ هذه بثينة مقبلة .

المالك : أجل ! أيتها الملكة أقبلت الدنيا وعاد الزمان .

إحدى الأميرات : بثينة ! أختي ! ما أعظم إحسانك يارب .

المالك : بنيتي . بنيتي . تعالي املي ذراعي كما كنت تختبئين فيهما

طفلة صغيرة .

[تنطح بثينة على صدر والدها وتقول] .

بثينة : أبى ، سيدى ، ملكى ، لا بأس عليك يا ملك العرب .

الملك : ولا عليك يا ابنتى ، ثقى بالله وأملى وجهه الكريم .

بثينة : الصبر منك تعلمناه يا ملك الصابرين .

الملك : والجدّة يا بثينة أنسيتهما ؟ أما بك إليها شوق ؟ أما لها منك .

قبلة ؟

بثينة [وتقوم لجدتها] : جدّتى ، سيدتى ، ملكتى : شهد الله ما خلا القلب

منك ساعة وما وجدت في مَضِيقي فذكرتك إلا انقلب فضاءً

ولا أظن الله سبحانه وتعالى أنقذنى من البلاء وردنى الى

أسرتى وردّ أسرتى الى إلا ببركة رضاك أطل الله عمرك

يا جدّة .

[ثم ترمى بثينة فى أحضان العنادية جدتها وهى محاطة بأخواتها

الأميرات تقبلهن ويقبلنها حتى اطردت اللوعة وأخذها أبواها

بينهما وانتظمت من الأسرة الملكية حلقة . وهناك أقبل الملك

على ابنته بالحديث فقال] .

الملك : خبريني كيف اختطفت يا بثينة وما حديث اختفائك ؟
 حديثيه ليطمئن قلبي فقد كان احتجابك في غليان الفتنة ،
 وعند احتدام الفتن يُذال المصون ويهون العزيز وتقع
 الفجاءات .

بثينة : ولكن الله سلم يا أكرم الآباء .

الملك : حديثنا إذن حديثك يا بثينة .

بثينة : حديثي يا أبت عجيب ، محزون ، سار ، مبهك ، مضحك ،
 حافل بعجائب القدر ومدهشات القضاء .

الأميرات : حديثنا إياه يا أخت أسرعي .

الرميكية : قصي علينا يا بنتاه قصتك .

الملك : خبريني انخبر يا بثينة .

بثينة : نظرت إليك يا أبي يوم هجوم المغاربة على أشبيلية فرأيتك
 تقايل وحيدا قليل العون والمساعد وكان أشبيلية تحتك
 العرين وكأنك الأسد يحمي عرينه شهرا شهرا ، فقلت

في نفسي : علامَ تعلَّمتُ الضربَ بالسيفِ وعلامَ كنت
أركضُ جِيادَ الخيلِ في سهولِ الأندلسِ وحُزونه إذا أنا
لم أقضِ حقَّ وطني ولم أحيمِ ظهرَ أبي في هذا اليومِ
العصيبِ ، ثم جعلتُ على وجهي لِشاماً وتقلدتُ سيفاً
وامتطيتُ جواداً ونحرتُ من القصرِ فليحقتُ بك ، فلم
أزلُ أقاتلُ بجانبك وأحامي عنك حتى امتدَّتْ اليَّ يدُ من
حديدٍ فاقتلعتني من سرجي فأغمى عليَّ ثم انتبهتُ فإذا أنا
في دارِ رجلٍ من قوادِ المغربِ .

الملك [مغضباً] : وماذا لقيتِ من المغربي الحِشِنِ ؟

بشينة : لم ألقِ إلا خيراً يا أبي فقد كان الرجلُ ديناً وتقياً ، أخذَ
ما عليَّ من الحُلِيِّ .

الملك : ياله من دينٍ تقيٍّ .

بشينة : ... وتركني فلبثتُ في داره أياماً طريحة الفِراشِ لا أذوق
طعاماً ولا أطعمُ رُقاداً ، إلا ما كان من سَكَراتِ الحُمى ،

الى أن سخرت لى العناية هذا الشيخ الجليل [وتشير الى
 أبى الحسن] فلم أدر كيف نُقلتُ الى داره وهى لا تَقِلُّ رِفْعَةً
 عن قديم دُورنا ولا تقصر بشاشة نعمة عن زائل قصورنا .
 بالملك [فى قلق وفضب ، مشيرا إلى حسون] : وهذا الشابُّ من يكونُ يابثينة؟

يبثينة : هذا حسونُ بنُ هذا الشيخ الجليل التاجر أبى الحسن ،
 وله عندنا أيادٍ يذكُرُها مثلك فى الكرام فقد قاتل الثوار
 فى قرطبة مع أخى الظافر رحمةُ الله عليه ، وأبلى فى وقعة
 الزلاقة بلاءً كان له خطره وأثره فى ذلك الفتح المبين .

ابن حيون [مت دخلا فى الحديث] : وقد جرحَ حسون يومئذٍ جرحاً بليغاً فحملَ
 الى داره فما بلغها حتى بعث اليك أيها الملك بالصاعقة
 ذلك الجوادُ الأشقر فركبته والوطيسُ حامٍ والحربُ مجنونة
 فكان ميمونُ الناصية ، من صوته نصرت ، وفى ركابه غلبت
 وظهرت .

الملك [مفكرا مهتما] : الصاعقة؟ فرس الباز بن الأشهب لصُ الأندلس؟

ابن حيون : أجل أيها الملك ، وقد كان تحتك في وقعة الدهر بين الفرنجة
والمسلمين وكان رابع فرسٍ قُدم لك يومئذٍ وأنت كلما هلك
تحتك فرس ركبت غيره .

العبادية : أعرفت محدثك هذا يا مولاي ؟

الملك : كيف أجهله أو أنساه ؛ هذا ابن حيون الذي زارنا
في أشبيلية ونصح لنا فلم نسمع منه ، فالحمد لله الذي جمعنا به
حتى نستأنف شكر إحسانه .

ابن حيون : أطال الله بقاءك يا مولاي وأعانك على هذه الشدة وردك
إلى ديارك ورد ديارك إليك .

الملك : وأنت يا حسون فقد ذكر لي بلاؤك ووصفت عندي كثيرا
بجاسن الصفات ومكارم الأخلاق .

حسون : مد الله حياتك يا مولاي وظللك برعايته وأمانه .

بشينة : إيذن لي يا أبا أن أعترف في مجلسك بأنني كنت في بعض
أيام تنكري أجمع بهذا الشاب النبيل فلا أجد إلا أدبا

حسنا ، وعلمها جمًّا ، وخلقا فاضلا ، وشمائل قد لا توجد
في أبناء الملوك .

المسك : أتذكرين يا بثينة كيف كنت معك ضد القاضي بن أدهم
حين جاءني يخطبك للأمير ، سيرى بن أبي بكر .
بثينة : أذكر ذلك يا أبي ولا أنسى لك فضلك ما حييت .

المسك : إعلمي إذن يا بنية أن الأوان قد آن وأن الإسلام لا دبر
فيه ولا رهبانية ، وأن السجن قد يحتمله الطفل وقد يطيقه
الكهل ولكنه يرهق الشباب ويزهقه فلن نرضى لك أن
تساطرينا هذا المنزل الحشيش وهذه العيشة الجافية وإن قلبي
ليحدثني بأن ألفة روحية قد انعقدت بينك وبين هذا
الشاب النبيل .

حسون [مت دخلا] : أياذن لي الملك إن عرضت أن قوله الكريم إنما
يعرب عما أكن لسيدتي الأميرة من الحب والإجلال وإني
أجد أقصى التشريف وغاية السعادة أن ياذن لي الملك

في أن أخطبَ سيدتي بثينةَ إليه .

الملك [ملتفتا الى بثينة] : وأنتِ ماذا تقولين يا بثينة ؟

« الأميرة تفضي حياءا وتسمكت »

الملك : من الصميتِ كلام .

الملك [الى أبو الحسن] : وأنت يا أبا الحسن ماذا ترى ؟

أبو الحسن : ما يرى الملك أفضل . فما شئت فمرنا يا مولاي ؟

الملك [الى الريميكية] : والمليكة ما رأيها ؟

المليكة : قد أمرت يا مولاي بما فيه الخير جعله الله زواجا مقروناً

بالسعادة واليمن .

ابن حيون : أياذنُ الملك لي أنا الآخر بالكلام ؟

الملك : تكلم يا ابن حيون فقد عرفتُ مودتك وإخلاصك ،

وتبينتُ نصحك واهتمامك ، ولولم يكن من احسانك إلى

والى أسرتي إلا تجشمُ هذه الرحلة من أشبيلية الى أغمات

لكفى في باب المروءة والوفاء .

ابن حيون : لا شكر على واجب يا مولاي . وقد طوّقتني الساعة منّة
لا يترعها من عنق الموت بما رسمت من بناء هذا الفتي
الماجد الباسل بهذه الأميرة التي لم يلد الملوك أجمل
ولا أكل منها : والآن بقي لي ملتبس أرجو أن يجيئني
الملك اليه .

الملك : اقترح يا ابن حيون تجد مليبًا مجيبًا فيما تبغّه قدرة ملك مخلوع .
[يخرج ابن حيون جرابا كان قد شدّه على وسطه ثم يفتحه وينثره
عند قدمي الملك فتنتثر اللآلئ والياقوت] .

الملكة : جواهر !

الأميرات : لآلئ ! يواقيت !

مقلاص : يالك من كنز ثمين زال .

الملك [وهو ينحني على الكنز] : ومن أين لك يا ابن حيون كل هذا
المال؟ فمثل هذا الكنز لا يكون إلا ذخيرة ملك وابن
ملوك .

ابن حيون : هو كما تقول يا مولاي ، فهذا الكنز كان لملك ووارث

ملوك ، فساقته العناية إلى ، واليوم قد هلك أصحابه وبادوا
فأصبح لي وحدي أتصرف به كيف أشاء ، وبالأمس
قومت هذه الجواهر بما يقرب من ألف ألف دينار وأنا
مقسم هذا المال ثلاثة أقسام : ثلث تأخذه أنت يا مولاي
فتستعين به على ما أنت فيه من الشدة ، وثلث يأخذه حسون
وزوجته فيعيشان به رغدا ، والثلث الثالث يكون لي
ولأبي الحسن التاجر هذا [مشيرا إلى أبي الحسن] تؤسس به
تجارةً ونعقد بيننا شركة نتحدي بها تجارات الفرنجة
في الأندلس .

أبو الحسن : ... الله أكبر أنت والله هو المغربي الذي دخل على داري
وما كنت يومئذ إلا متنكرا محسنا للتنكر فأسوت جرحي
وحفظت على داري واستنقذتني من عوادي البؤس
والفاقة ، والآن ترد على تجارتي وتشاطرنى كرائم مالك ،
فبأى لسان أؤدى شكر إحسانك .

ابن حيون : بل أشكر الله يا أنحى فانى لم أعينك بمالى ولكن أعنتك بماله

ولا أجدني صنعتُ يومئذٍ إلا واجبا ولا قضيتُ إلا ديناً
على للصداقة القديمة وللود الصحيح .

الملك : لكن ما عساي أصنعُ يا بن حيون بهذه الثروة وأنا كما تراني
صيد في قيد، وأسد في صفد، وحى في قبر، ودنيا في شبر
إنها هبة مشكورة وإن كانت والحرمأن سواء .

ابن حيون : لقد أراح الله بالك من هذه الناحية يا مولاي وأذهب
عك الحزن ... أما يسرك يا مولاي أن تنتقل من هذه
القاعة المظلمة الرطبة الى منزلٍ بظاهر المدينة جديد البناء
حسن الأثاث تُحيطُ به الأشجار من كل جانب ، فتترله
وقد طرحت هذه القيود فتستقبل الراحة والحرية وتتمتع
بالعزلة التي هَامَ بها العقلاء في كل زمان .

الملك : ومن لي بهذا الذي تصفُ يا بن حيون ؟

ابن حيون : بل هو أمرٌ قد تمَّ يا مولاي فقد فرغ من شرائه وتأثيثه
وتهيئته لنزولك به في أهلك وعيالِك ، وأما النقلة فغداً

أو بعده إن شاء الله .

الملك : وابنُ تاشفين ... ؟

ابن حيون : هو الذي أمر أن يكون كلُّ ذلك وقد تذكر كلمتك المشهورة التي سارت مثلاً في فم الأندلس : إذ سئلتُ أيَّ المفزعين أحبُّ إليك : ملك الأَسبان أم سلطان المغرب فأجبت (رعى الجمال ولا رعى الخنازير) فأمر أن يحمل إليك في المنزل الحديد بعيران من نجائب إبله لترعاهما له في ناحية الدار الجديدة .

الملك [في إطراق] : الآن تذكرتُ . لقد سئلتُ مرة في مجلس الحكم إن كان لا بد لي أن أخضع لسلطان أو أدين لملك بالطاعة فأى الملكين أفضل وأى السلطانين أختار : سلطان المغرب أم ملك الأَسبان؟ فأجبتُ : (أرعى الجمال عند أمير المسلمين ولا أرعى الخنازير لملك الأَسبان) وأظن أن عبارتي هذه نُقلت يومذاك إلى ابن تاشفين فأعجبته ووجدتها شريفة .

بثينة : ولكن المكافأة كانت غير شريفة يا أبي .

الملك : تريدان يا بثينة أن تقولى إن مروءة السلطان لم تزد على أن جعلنى راعياً لجماله بعد ما سلب نعمتى واغتصب ملكى ونفانى أنا وأسرتى فى أعظام .

الرميكية : هذا جهد الرجل فى المروءة يا مولاي وهذه غاية كرمه فلا تكلفه فوق قدرة باعه ولا تسأله ما ليس فى طباعه .

الملك [لابن حيون] : ولكن قل لى يابن حيون من أخذ لنا هذا التافه القليل من ذلك السلطان الشحيح ؟ ومن ذا الذى اجتهد لنا وصنع كل هذا حتى غير رأى السلطان وصرفه عن العنيفة إلى اللطف ؟

بثينة : هو لاشك ابن حيون يا مولاي .

ابن حيون : ما اجتهدت ولا صنعت شيئاً ولكن المال صنع .
[ويشير الى الجواهر] .

الملك : سند كرك هذه الهمة الكبرى يابن حيون .

بثينة : وتلك الهمة الصغرى أتذكرها للسلطان يا مولاي ، فقد

تَسْمَحَ فَنَقْلَكَ مِنْ هَذِهِ الْقَلْعَةِ إِلَى دَارِ غَيْرِهَا فِي أَغْمَاتٍ .
المسلك : [ويتسم ابتسامة تهكم] : أَعِشْ فِيهَا حَرًّا طَلِيقًا بَيْنَ أَرْبَعَةِ
جُدُرَانٍ وَأَرَعَى لَهُ فِيهَا الْجَمَالَ .
بثينة : أَنْتَ الَّذِي رَعَيْتَ لِلَّهِ فِي أَشْبِيلِيهِ قَوْمًا شَيَّدُوا حَضَارَةَ الْإِسْلَامِ ،
وَشَعْبًا عَزِيزًا كَرِيمًا طَالَمَا نَاضَلَ دُونَ عَرِينِهِ وَصَبَرَ عَلَى
عَدَاوَةِ الْفَرَنْجَةِ وَتَأَلَّبَهُمْ عَلَيْهِ الْقُرُونُ الطَّوَالَ .
[سستار]



وكان تمام طبع رواية أميرة الأندلس بمطبعة دار الكتب المصرية في يوم الثلاثاء
٢ رجب سنة ١٣٥١ (أول نوفمبر سنة ١٩٣٢) م

محمد نديم

ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية

(مطبعة دارالكتب المصرية ٣٣/١٩٣٢/١١٠٠٠)

